

مَشْرُوحٌ

لَا مِثْلَهُ ابْنِ التَّوَرِي

المُسَمَّاةِ نَصِيحَةِ الإِخْوَانِ وَمُرْشِدَةِ الْخُلَّانِ

نَظْمٌ

أَبِي حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ الْمُظَفَّرِ الْمَعَرِّيِّ الْبُكْرِيِّ

الشَّهِيرِ بِابْنِ التَّوَرِي (ت ٧٤٩هـ)

مُشْرَحٌ

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ طَوْقٍ الْمُرِّي

لامية ابن الوردي

- اعْتَزَلْ ذِكْرَ الْغَوَانِي وَالْغَزَلْ ١ وَقُلِ الْفَضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلْ
- وَدَعَ الذُّكْرَى لِأَيَّامِ الصَّصَا ٢ فَلِأَيَّامِ الصَّصَا نَجْمٌ أَفْلُ
- إِنَّ أَهْنَا عَيْشَةً قَضَّيْتَهَا ٣ ذَهَبَتْ لَذَائِهَا وَالْإِثْمُ حَلْ
- وَأَتْرُكُ الْغَادَةَ لَا تَحْفِلُ بِهَا ٤ تُمَسِّ فِي عِزٍّ وَتُرْفَعُ وَتُجَلْ
- وَالَهُ عَنْ آلَةٍ لَهُوَ أَطْرَبَتْ ٥ وَعَنِ الْأَمْرِ مُرْتَجِّ الْكَفَلْ
- إِنْ تَبَدَّى تَنْكَسِفُ شَمْسُ الضُّحَى ٦ وَإِذَا مَا مَاسَ يُزْرِي بِالْأَسَلْ
- زَادَ إِنْ قَسْنَاهُ بِالْبَدْرِ سَنَا ٧ أَوْ عَدَلْنَاهُ بِغُضْنٍ فَاعْتَدَلْ
- وَأَفْتَكِرْ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي ٨ أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدُ أَمْرًا جَلَلْ
- وَاتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهُ مَا ٩ جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلْ
- لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا ١٠ إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الْبَطَلْ
- وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتَى ١١ كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ
- صَدَّقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى ١٢ رَجُلٍ يَرْصُدُ بِاللَّيْلِ زُحَلْ
- حَارَتْ الْأَفْكَارُ فِي قُدْرَةٍ مَنْ ١٣ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا عَزَّ وَجَلْ
- كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ ١٤ فَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلْ
- أَيَّنَ نُمْرُودُ وَكُنْعَانُ وَمَنْ ١٥ مَلَكَ الْأَمْرَ وَوَلَّى وَعَزَلْ
- أَيَّنَ عَادُ أَيَّنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ ١٦ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَحَلْ
- أَيَّنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا ١٧ هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلْ
- أَيَّنَ أَرْبَابُ الْحِجَا أَهْلُ النُّهَى ١٨ أَيَّنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلْ
- سَيُعِيدُ اللَّهُ كُلًّا مِنْهُمْ ١٩ وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ

- أَيُّ بُنَيَّ اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ ٢٠ حِكْمًا خُصَّصَتْ بِهَا خَيْرُ الْمِلَلِ
- اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا ٢١ أَبْعَدَ الْخَيْرِ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ
- وَاحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا ٢٢ تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ أَوْ خَوَلْ
- وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ ٢٣ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَدَلْ
- لَا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ ٢٤ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرَبِ وَصَلْ
- فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَا ٢٥ وَجِمَالُ الْعِلْمِ يَا صَاحِ الْعَمَلِ
- جَمَلِ الْمَنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ ٢٦ يُحْرِمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلْ
- وَأَنْظِمِ الشُّعْرَ وَلَا زِمَ مَذْهَبِي ٢٧ فَاطْرَاحُ الرَّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقْلُ
- فَهُوَ عُنوانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا ٢٨ أَحْسَنَ الشُّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ
- مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى ٢٩ مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلْ
- أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدِ ٣٠ قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبْلِ
- إِنْ جَزَيْتَنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي ٣١ رِقِّهَا أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَجَلُ
- أَعَذَّبُ الْأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ: خُذْ ٣٢ وَأَمْرُ الْقَوْلِ نُطْقِي: بِلَعَلْ
- مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةً ٣٣ وَعَنْ الْبَحْرِ ارْتِشَافٌ بِالْوَشَلِ
- اعْتَبِرْ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ٣٤ تَلْقَهُ حَقًّا وَبِالْحَقِّ نَزَلْ
- لَيْسَ مَا يَخْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ ٣٥ لَا وَلَا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالْكَسَلِ
- اطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا ٣٦ تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ
- عِيشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَخْصِيلِهَا ٣٧ عِيشَةُ الْجَاهِدِ بَلْ هَذَا أَذَلْ
- كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثَرِّ مُكْثَرٌ ٣٨ وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ
- كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنْلِ مِنْهَا الْمُنَى ٣٩ وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلِ

- فَاتْرُكِ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّيِدْ ٤٠
 أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنْلِ مِنْهَا الْمُنَى ٤١
 لَا تَقُلْ: أَصْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا ٤٢
 قَدْ يَسُودُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبِي ٤٣
 وَكَذَا الْوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا ٤٤
 مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى ٤٥
 قِيمَةِ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ ٤٦
 اكْتُمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَى ٤٧
 وَادَّرِغْ جِدًّا وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ ٤٨
 بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلِ رُتْبَةً ٤٩
 لَا تَخْضُ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا ٥٠
 وَتَغَافِلَ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ ٥١
 لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدِّ وَإِنْ ٥٢
 غَبَّ عَنِ النَّمَامِ وَاهْجُرْهُ فَمَا ٥٣
 دَارِ جَارَ الدَّارِ إِنْ جَارَ وَإِنْ ٥٤
 جَانِبِ السُّلْطَانِ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ ٥٥
 لَا تَلِ الْحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا ٥٦
 إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءُ لِمَنْ ٥٧
 فَهُوَ كَالْمَخْبُوسِ عَنْ لَذَاتِهِ ٥٨
 إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالِاسْتِثْقَالِ فِي ٥٩
 إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيلِ
 فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلِ
 إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ
 وَبِحُسْنِ السَّبِّكَ قَدْ يُنْفَى الزَّغَلِ
 يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلِ
 نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكَرٍ اتَّصَلَ
 أَكْثَرَ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقَلِ
 وَاحْسِبِ الْفَلَسَ وَحَاسِبٌ مَنْ بَطَلَ
 صُحْبَةَ الْحَمَقَى وَأَرْبَابِ الْخَلَلِ
 وَكِلا هَذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَلَ
 إِنَّهُمْ لَيُسُوءَا بِأَهْلِ لِلزَّلَلِ
 لَمْ يَفْزُ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ
 حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلِ
 بَلَغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلَ
 لَمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النُّقْلِ
 لَا تُخَاصِمْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلَ
 رَغْبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَدَلَ
 وَلِي الْأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَدَلَ
 وَكِلا كَفَّيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغْلِ
 لَفْظَةَ (الْقَاضِي) لَوْعْظًا وَمَثَلِ

- ٦٠ لَا تُوَازِي لَذَّةَ الْحُكْمِ بِمَا ذَاقَهُ الْمَرْءُ إِذَا الْمَرْءُ انْعَزَلَ
- ٦١ فَالْوِلَايَاتُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ ذَاقَهَا فَالْشُّمُّ فِي ذَاكَ الْعَسَلُ
- ٦٢ نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَى جَلَدِي وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَاةِ السَّفَلِ
- ٦٣ قَصْرُ الْأَمَالِ فِي الدُّنْيَا تَفْزُ فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ
- ٦٤ إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ
- ٦٥ غِبٌّ وَزُرٌّ غِبًّا تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ الْمَلَلُ
- ٦٦ خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلِّ
- ٦٧ لَا يَضُرُّ الْفَضْلَ إِقْلَالُ كَمَا لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفْلِ
- ٦٨ حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ فَاعْتَرِبْ تَلَقَّ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلُ
- ٦٩ فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَبْقَى آسِنَا وَسُرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلَ
- ٧٠ أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي عَبَثًا إِنَّ طِيبَ الْوَرْدِ مُؤَذِّ بِالْجُعَلِ
- ٧١ عَدَّ عَنْ أَسْهَمٍ لَفْظِي وَاسْتَتِرَ لَا يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثَعْلٍ
- ٧٢ لَا يَغُرَّنَّكَ لَيْنٌ مِنْ فَتَى إِنَّ لِلْحَيَاتِ لَيْنًا يُعْتَزَلُ
- ٧٣ أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِغٌ وَمَتَى سُخْنٌ آذَى وَقَتَلُ
- ٧٤ أَنَا كَالْخَيْزُورِ صَعْبٌ كَسْرُهُ وَهُوَ لَذَنٌ كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلَ
- ٧٥ غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَلُ
- ٧٦ وَاقِبْ عِنْدَ الْوَرَى إِكْرَامُهُ وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلُّ
- ٧٧ كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ غُمْرٌ وَأَنَا مِنْهُمْ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمَلِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين^١.
 أما بعد فهذه مدارسُ لـ «لامية ابن الوردي» وهي قصيدة عذبة المباني، رائقة المعاني،
 تفيض بالنصح والتذكير، والهداية والتبصير، تُسمى «نصيحة الإخوان ومُرشدة الخُلان» -
 بضم الخاء-، احتوت على جملةٍ من أسباب السعادة والتوفيق، ناظمُها: أبو حفص عمر ابن
 المظفر المَعَرِّيُّ بلدًا البَكْرِيُّ نسبًا المعروف بابن الوردي، كان عالمًا باللغة والنحو والفقه
 والأدب والتاريخ، تولى القضاء ثم تركه وعزل نفسه واشتغل بالتعليم والتأليف، له «البهجة
 الوردية» تزيد على خمسة آلاف بيت، عَقَدَ بها الحاوي في فقه الشافعية، وله ألفيةٌ في تعبير
 المنامات، وديوانٌ شعرٍ مطبوع، شعرُهُ رقيق، يدل على ذوقٍ رفيع، قال الحافظ ابن حجر:
 «وأقسم بالله لم ينظم أحدٌ بعده الفقه إلا قَصَّرَ دونه» ووصف ابن السبكي شعره بأنه: «أحلى
 من السكر المُكَّرَّر وأعلى قيمة من الجواهر».

توفي ابن الوردي -رحمه الله- سنة تسع وأربعين وسبع مئة، ولاميته هذه من بحر الرمل.

^١ أصل هذه الأوراق تفريغٌ لشرح صوتي على لامية ابن الوردي كان في شهر ربيع الآخر لعام ١٤٤٥هـ، وقد اطلع
 الشارح على هذه الأوراق قبل نشرها فراجعها وأعاد صياغة مواضع منها بما يناسب الكتاب المقروء.

قال الناظم - رحمه الله - :

اعْتَزَلَ ذِكْرَ الْغَوَانِي وَالْغَزَلَ وَقُلِ الْفَضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلَ
 وَدَعَ الذِّكْرَ لِأَيَّامِ الصَّصَا فَلِأَيَّامِ الصَّصَا نَجْمٌ أَفَلَ
 إِنَّ أَهْمَنَا عَيْشَةً قَضَّيْتَهَا ذَهَبَتْ لَذَائُهَا وَالْإِثْمُ حُلْ
 وَأَتْرَكَ الْغَادَةَ لَا تُحْفِلُ بِهَا تُمَسِّ فِي عِزٍّ وَتُرْفَعُ وَتُجَلْ
 وَالْهَ عَنْ آلَةٍ لَهُوَ أَطْرَبَتْ وَعَنِ الْأَمْرِ دُمُورُ الْجَفَلْ
 إِنْ تَبَدَّى تَنَكَّسَ شَمْسُ الضُّحَى وَإِذَا مَا مَاسَ يُزْرِي بِالْأَسَلْ
 زَادَ إِنْ قَسْنَاهُ بِالْبَدْرِ سَنَا أَوْ عَدَلْنَاهُ بِغُصْنٍ فَاعْتَدَلْ
 وَافْتَكِرَ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدُ أَمْرًا جَلَلْ



قال الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

قوله رحمه الله :

اعْتَزَلَ ذِكْرَ الْغَوَانِي وَالْغَزَلَ وَقُلِ الْفَضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلَ
 (اعْتَزَلَ) الاعتزال: التنحي وترك المخالطة.

(ذِكْرَ الْغَوَانِي) الغواني: جمع غانية وهي التي غَنِيَتْ بحسنها وجمالها عن الزينة، وتُطلق

على التي غَنِيَتْ بزوجه عن غيره، والمراد: مطلق النساء، ولو لَمْ يَكُنْ غانيات.

وفي نسخة: (اعتزل ذكر الأغاني) والأغاني: جمع: أُغْنِيَّة - بالتشديد - وحُكي فيها

التخفيف وليست لغة قوية.

(وَالْغَزَلَ) الغزل: محادثة النساء في الحب.

(وَقُلِ الْفَضْلُ) أي قُل القول الحق.

(وَجَانِبُ مَنْ هَزَلَ) الهَزْلُ: ضد الجد، وهذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ * وَمَا هُوَ

بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٤].

يقول - رحمه الله -: اترك النساء الغواني - أو اترك الأغاني على النسخة الأخرى - وأعرض عن التَّغَزُّلِ بِهِنَّ، واجتنب المزمح واللعب وأقبل على الحق.

ابتدأ بالتحذير من فتنة النساء، لأنها أعظم الفتن المتعلقة بالشهوات، لذلك بدأ الله تعالى بها عند تعداد الشهوات فقال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية.

وقال - صلى الله عليه وسلم -: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضُرَّ على الرجال من النساء».

ثم حثَّ على الجدِّ وقولِ الحق، وتركِ الهزل والباطل.

والمذموم من المزاح: هو الإفراط فيه بأن يكون هجيراً وديدناً، أما الاقتصاد فيه فمحمود، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يمزح ولا يقول إلا حقاً، قال للعجوز التي قالت: ادعُ الله أن يُدخلني الجنة: «لا يدخل الجنة عجوزٌ»، وقال للرجل الذي استحملة: «إنا حاملوك على ولد الناقة»، قال: وما أصنع به؟ قال: «وهل تلد الإبل إلا النوق»، وقال لأخٍ لأنسٍ - رضي الله عنهما - صغيرٍ: «يا أبا عُمَيْرٍ، ما فعل النُّعَيْرُ».

وقال عليٌّ - رضي الله عنه -: «أجمُّوا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان».

وكان الزهري - رحمه الله - يقول: «هأثوا من أشعاركم، هأثوا من أحاديثكم؛ فإن الأذن

مَجَّاجَةٌ، وَإِنْ النَّفْسَ حَمِصَةً».

قال الناظم:

وَرَوْحَ الْقَلْبِ بِذِكْرِ الطَّرْفِ فَإِنْ ذَاكَ مِنْ صَنِيعِ السَّلَفِ
وقال العراقي في ألفية الحديث:

وَأَسْتُحْسِنَ الْإِنْشَادُ فِي الْأَوَاخِرِ بَعْدَ الْحِكَايَاتِ مَعَ النَّوَادِرِ
أي في أواخر مجالس التحديث.

وفي هذا المعنى يقول أبو الفتح البستي:

أَفِذْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ بِالْجِدِّ رَاحَةً يَجِمُّ وَعَلَّاهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ
وَلَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتْهُ الْمَزْحُ فَلْيَكُنْ بِمُقْدَارٍ مَا يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ الْمِلْحِ

ولاحظ أنه دعا في البيت إلى ترك الباطل مع الاشتغال بالحق فقال:

اعْتَزِلْ ذِكْرَ الْغَوَانِي وَالْغَزَلِ وَقُلِ الْفَضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلَ
ولم يكتف بالأول، لأن النفس إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

ثم قال - رحمه الله -:

وَدَعَ الذِّكْرَى لِأَيَّامِ الصَّبَا فَلِأَيَّامِ الصَّبَا نَجْمٌ أَفْلٌ

وفي بعض النسخ: (وَدَعَ الذِّكْرَ) بلا ألف، والذكرى والذكر كلاهما يُطلقان على التذكُّر

الذي هو ضدُّ النسيان، وعلى أن تذكُّر الشيء بلسانك وتحدث عنه.

(لِأَيَّامِ الصَّبَا) أي أيام الصَّغَرِ واللَّهْوِ واللَّعِبِ.

(فَلِأَيَّامِ الصَّبَا نَجْمٌ أَفْلٌ) معنى (أَفْلٌ): غاب، ومنه في القرآن: ﴿فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ

يقول: اترك التَّشَاغُلَ بذكریات الصِّبَا؛ لأنه لا ينفع تذكُّرها، وأيامُ الصِّبَا إن ذهبت في اللهو والخطايا فتذكُّرها مَضِيعَةٌ للوقت وملهاةٌ عن العمل الصالح، وقد يُغري ذلك الإنسان بالرجوع إلى المعاصي والحنين إليها، وإن تذكَّرها للعبرة فهو أمرٌ مستحسن.

ثم قال - رحمه الله -:

إِنَّ أَحْلَى عِيشَةٍ قَضَيْتَهَا ذَهَبَتْ لَذَائِهَا وَالْإِثْمُ حَلٌ
 (إِنَّ أَحْلَى) وفي نسخة: (إِنَّ أَهْنًا) (عِيشَةٍ) حياةٍ (قَضَيْتَهَا ذَهَبَتْ لَذَائِهَا) أي شهواتها (وَالْإِثْمُ حَلٌ) أي ثبت عليك. المعنى: إن أطيب ساعةٍ قضاها الإنسان في شهوةٍ محرمةٍ قد مضت وبقي إثمها وحسرتها وتبعاتها، وقد كان سفيان الثوري كثيرًا ما يتمثل:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْإِثْمُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبَّتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

وَاتْرُكِ الْغَادَةَ لَا تَحْفَلِ بِهَا تُمَسِّ فِي عِزٍّ وَتُرْفَعُ وَتُجَلِّ
 (الْغَادَةُ) الفتاة الناعمة المتشبة لينا (لَا تَحْفَلِ بِهَا) حَفَلَ يَحْفَلُ - بكسر الفاء - من باب ضَرَبَ يقال: لَا تَحْفَلْ بِهِ أَي لَا تُبَالِ بِهِ وَلَا تَهْتَمِ (تُمَسِّ) أي تَصِرُ، أمسى هنا بمعنى: صار و(تُمَسِّ) بحذف الياء، مجزوم لوقوعه في جواب الطلب وهو (اترك) (تُمَسِّ فِي عِزٍّ وَتُرْفَعُ وَتُجَلِّ) يقول: أعرض عن طلب الفتاة الناعمة والتعلُّقِ بها فإن ذلك يجعلك عزيزًا جليلاً عند الله والناس، وطلبُ الغادة والتعلُّقُ بها وبألٍ على صاحبه في الدنيا بالخزي والهوان والبلاء وفي الآخرة بالعذاب الأليم، فإن كان طلبُها عن طريق النكاح فهو محمودٌ شرعًا وقد قال - صلى

الله عليه وسلم-: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

ثم قال - رحمه الله -:

وَاللهَ عَنْ آلَةٍ لَهْوٍ أَطْرَبَتْ وَعَنِ الْأَمْرِ دُرَّتْجِ الْكَفَلِ

قوله: (وَاللهَ) يقال: لَهِيَ عن الشيء يَلْهَى إذا تركه وأَضْرَبَ عنه، وَلَهَا بالشيء يلهو إذا أُولِعَ به.

(وَاللهَ عَنْ آلَةٍ لَهْوٍ أَطْرَبَتْ) الطَّرَبُ: خِفَّةٌ تُصِيبُ الإنسانَ لشدة سرورٍ أو حُزنٍ.

يقول: اترك آلات الطرب والغناء فإن الغناء والاستماع إليه مفسدةٌ للقلب، قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦] كان ابن مسعود - رضي

الله عنه - يُقسم بالله الذي لا إله إلا هو ثلاثاً إن لَهْوَ الحديث لَهْوُ الغناء، وقد قال - صلى الله

عليه وسلم -: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرَّ والحريمَ والخمرَ والمعازف» وقد قال

ابن القيم - رحمه الله -: «فَلَعَمْرُ اللَّهِ كم من حُرَّةٍ صارت بالغناء من البغايا، وكم من حُرٍّ أصبح

به عبداً للصبيان أو الصبايا» قال: «وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حَلَّتْ به أنواع البلايا»

قال الشاعر:

فَسَلْ ذَا خَبْرَةٍ يُنْبِئُكَ عَنْهُ لَتَعْلَمَ كَمْ خَبَايَا فِي الزَّوَايَا

وَحَازِرْ إِنْ شَغِفْتَ بِهِ سِهَامًا مُرِيْشَةً بِأَهْدَابِ الْمَنَايَا

إِذَا مَا خَالَطَتْ قَلْبًا كَيْبًا تَمَزَّقَ بَيْنَ أَطْبَاقِ الرِّزَايَا

وَيُضْبِحُ بَعْدَ أَنْ قَدْ كَانَ حُرًّا عَفِيفَ الْفَرْجِ عَبْدًا لِلصَّبَايَا

ولبعضهم:

بَرُّنَا إِلَى اللَّهِ مِنْ مَعْشَرٍ بِهِمْ مَرَضٍ مِنْ سَمَاعِ الْغِنَا
وَكَمْ قُلْتُ يَا قَوْمُ أَنْتُمْ عَلَى شَفَا جُرْفٍ مَا بِهِ مِنْ بِنَا
شَفَا جُرْفٍ تَحْتَهُ هُوَّةٌ إِلَى دَرَكٍ كَمْ بِهِ مِنْ عَنَا
وَتَكَرَّرُ ذَا النَّصْحِ مِنَّا لَهُمْ لِنُعْذَرَ فِيهِمْ إِلَى رَبِّنَا
فَلَمَّا اسْتَهَانُوا بِتَنْبِيهِهَا رَجَعْنَا إِلَى اللَّهِ فِي أَمْرِنَا
فَعِشْنَا عَلَى سُنَّةِ الْمُصْطَفَى وَمَاتُوا عَلَى تَنْتِنَا تَنْتِنَا

وشدّت طائفة وغلّت حتى زعمت أن الغناء قرينةٌ وعبادة، فأجابهم أبو إسحاق الموصلي

بقوله:

أَلَا قُلْ لَهُمْ قَوْلَ عَبْدٍ نَصُوحٍ وَحَقُّ النَّصِيحَةِ أَنْ تُسْتَمَعَ
مَتَى عَلِمَ النَّاسُ فِي دِينِنَا بِأَنَّ الْغِنَا سُنَّةٌ تُتَّبَعُ
وَأَنْ يَأْكُلَ الْمَرْءُ أَكْلَ الْحِمَارِ وَيَرْقُصَ فِي الْجَمْعِ حَتَّى يَقَعَ
وَقَالُوا: سَكِرْنَا بِحُبِّ الْإِلَهِ وَمَا أَسْكَرَ الْقَوْمَ إِلَّا الْقِصْعُ
كَذَاكَ الْبَهَائِمُ إِنْ أُشْبِعَتْ يُرَقِّصُهَا رِيُّهَا وَالشُّبْعُ
وَيُسَكِّرُهُ النَّايُ ثُمَّ الْغِنَا وَ(يس) لَوْ تُلَيْتُ مَا انْصَدَعُ
فَيَا لِلْعُقُولِ وَيَا لِلنُّهَى أَلَا مُنْكَرٌ مِنْكُمْ لِلْبِدْعِ
تُهَانُ مَسَاجِدُنَا بِالسَّمَاعِ وَتُكْرَمُ عَنْ مِثْلِ ذَاكَ الْبَيْعِ

قوله: (وَعَنِ الْأَمْرِ مُرْتَجِّ الْكَفَلِ) الأمرد: الشاب الذي لم تنبت لحيته، والكفل: العجز

وهو مؤخر الإنسان، والارتجاج: الاضطراب.

أَمَرَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُرْدِ؛ لِأَنَّ التَّعَلُّقَ بِهِمْ مَفْسَدَةٌ لِلدِّينِ وَالْعَقْلِ وَالْخُلُقِ.

قال: (إِنْ تَبَدَّى) ظهر (تَنَكَّسَفَ شَمْسُ الضُّحَى) يذهب ضَوْؤُهَا، وأضاف الشمس إلى

الضحى لأنها في وقت الضحى أَسْطَعُ نورًا.

(وَإِذَا مَا مَأْسَ) مَأْسَ: تبخر واختال، و«ما» زائدة:

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَهُ بَعْدَ (إِذَا) (مَا) زَائِدَهُ

(يُزْرِي بِالْأَسْلَ) يُزْرِي: يعيب، وَالْأَسْلُ: نبات رقيق الأغصان، وتُطلق الأسْل على

الرماح، والأسالة في الخد: الطول واللين.

يقول: إذا ظهر هذا الأمر يذهب ضوء شمس الضحى، وإذا تبخر في مشيته تهاون الناظر

بالرماح، أو بالنبات رقيق الأغصان عند حركة أغصانه بسبب حسن حركة هذا الموصوف.

وقيل: في معنى البيت: (وَإِذَا مَا مَأْسَ يُزْرِي بِالْأَسْلَ) أي إذا حلق شعره ازداد حُسْنًا. ذكره

القناوي في «فتح الرحيم الرحمن» وهو شرح واسع على اللامية.

ثم قال - رحمه الله -:

زَادَ إِنْ قِسْنَاهُ بِالْبَدْرِ سَنًا أَوْ عَدَلْنَاهُ بِغُصْنٍ فَاعْتَدَلْ

البدر: القمر في ليالي التمام. والسَّنَا الضوء ﴿يَكَادُ سَنًا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْبَصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

(أَوْ عَدَلْنَاهُ) قَارَنَاهُ بِغُصْنٍ فَاعْتَدَلْ. يقول: إذا شبهناه بالبدر زاد نوره وحُسْنُهُ على نورِ البدر

وحُسْنِهِ، ولو قارناه بالغُصْنِ في اعتداله وحركته لقام مقامه، فوصفه بجمال الوجه واعتدال

القَدِّ.

والمراد: أنه مظنةٌ للفتنة فالواجب الحذر من الفتنة وأسبابها.

وقد تمادى النَّاطِمُ - رحمه الله - في وصفه، وما كان أغناه عن هذا الذي ذكره، وقد كان

يكفيه الإجمال يقولون: (ومن البر ما يكون عقوقاً) كذلك من التحذير ما يكون إغراءً.

وقريبٌ منه ما قاله بعض علماء شنقيط يوصي طلبة العلم:

وَمَنْ كَانَ ذَا لَوْحٍ وَهَمٍّ وَطَاعَةٍ فَلَا يَدْنُ لِلْمُسْتَضْيَاتِ اللَّوَاعِبِ
فَمَا أَفْسَدَ الْأَلْوَحَ وَالْهَمَّ وَالتَّقَى كَبِضِ التَّرَاقِي مُشْرِفَاتِ الْحَقَائِبِ
مِرَاضِ الْعُيُونِ النَّجْلِ حُوشَفَاهُهَا رِقَاقِ الشَّيَا حَالِكَاتِ الذَّوَائِبِ

والمقصود من هذا كله: التحذير من اتباع الهوى، والمؤمن الصادق دينه أوقر في نفسه

وأعظم في صدره من أن يُرَخَّصَ لشهوةٍ فانية، وعلى العبد ألا يركن إلى نفسه وصبره وما

يعلمه من نفسه من عفةٍ فإنه متى ركنَ إلى ذلك تَخَلَّتْ عنه عصمة الله، ولهذا كان من دعائه -

صلى الله عليه وسلم - : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

ومما يردع عن الهوى: أن يسير العبد بفكره في عواقب الهوى، فينظر كم أفاتت طاعة

الهوى من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم من شهوةٍ نكَّست رأساً وقبَّحت ذكراً وأورثت

دُلاً، وألزمت عاراً لا يغسله الماء!

كَمْ مِنْ هَوًى أَوْرَثَ دُلاً مَا مُحِي نَكَّسَ رَأْسًا وَرَمَى بِالسَّارِحِ
كَمْ مِنْ هَوًى قَبَّحَ ذِكْرًا فِي الْوَرَى أَوْقَدَ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا لَا يُرَى
كَمْ عَاقِلٍ أَرْخَى الزَّمَامَ لِلْهَوَى حَتَّى إِذَا انْتَهَى بِهِ الدَّرْبُ هَوَى
كَانَ ابْتِدَاءُ أَمْرِهِ مُجُونًا فَمَا ارْغَوَى حَتَّى غَدَا جُنُونًا

خاطرٌ بكل شيء إلا دينك.

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبِرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

ثم قال - رحمه الله - :

وَأَفْتَكِرُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدُ أَمْرًا جَلِيلًا

(وَأَفْتَكِرُ) أي تفكر وتأمل. وقد ذكر الزبيدي في تاج العروس أن افترك من استعمال العامة

(فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي أَنْتَ تَهْوَاهُ) تميل إليه نفسك (تجد أمرًا جليلًا)، الأصل: تجد أمرًا جلدًا

لكنه وقف بحذف الألف على لغة ربيعة، قال ابن مالك:

كَذَا لَدَى رَبِيعَةَ الْمُنَوَّنِ فِي نَضَبٍ أَوْ فِي غَيْرِهِ يُسَكَّنُ

والجلل من الأضداد يُطلق على العظيم وعلى الحقيق.

يقول: تأمل في نهاية حسن ذلك الشيء الذي فتنك بجماله فأنت تهواه تجد أمرًا عظيمًا في

القبح، فإنه سيصل إلى الشيخوخة ثم الموت، ويكون جيفةً قدرةً لا يُطيق أحد الجلوس

عندها.

هذا على تفسير (الجلل) بالعظيم وعلى تفسيره بـ(الحقيق) يكون المعنى: تأمل تجد أمرًا

هينًا حقيرًا لا يستحق كل هذا التعلق منك، ومثله قول المتنبي:

لَوْ فَكَّرَ الْعَاقِلُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «إذا أعجبت أحدكم امرأةً فليذكر مناتنها».

قال ابن الجوزي: "وهذا أحسن من قول أبي الطيب؛ لأن ابن مسعود ذكر الحال الحاضرة

الملازمة، وأبو الطيب أحال على أمور متأخرة" ومثل بيت أبي الطيب بيت ابن الوردي هذا.

قال الناظم - رحمه الله - :

وَاتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهِ مَا جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلَ
لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الْبَطْلُ
وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى كَيْفَ يَسْمَعِي فِي جُنُونٍ مَنْ عَقْلُ
صَدَّقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى رَجُلٍ يَرْصُدُ بِاللَّيْلِ زُحْلُ
حَارَتِ الْأَفْكَارُ فِي قُدْرَةٍ مَنْ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا عَزَّ وَجَلُ
كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ فَلَّ مَنْ جَمَعَ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلُ
أَيْنَ نُمْرُودُ وَكُنْعَانُ وَمَنْ مَلَكَ الْأَمْرَ وَوَلَّى وَعَزَلُ
أَيْنَ عَادُ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ
أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنُوا هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُ
أَيْنَ أَرْبَابُ الْحِجَابِ أَهْلُ النُّهَى أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلُ
سَيُعِيدُ اللَّهُ كُلًّا مِنْهُمْ وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلُ



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

قال - رحمه الله - :

وَاتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهِ مَا جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلَ

يقول: عليك بتقوى الله، لأنه ما اتقى الله امرؤ إلا وصل إلى مرضاته سبحانه، وقد قيل

لطلق بن حبيب: صف لنا التقوى، فقال: «العمل بطاعة الله على نورٍ من الله رجاء ثواب الله،

وتركُ معصية الله على نورٍ من الله مخافة عذاب الله». نقله الذهبي في ترجمته من «سير أعلام

النبلاء» ثم قال: «أبدع وأوجز».

وقال النّازم:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ ضِ الشُّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الجنة لِمَنْ أُعِدَّتْ؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

بِم تحصل المعية؟ بتقوى الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

لِمَنْ يجعل الله الفرقان والعلم والنور؟ للمتقين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ

فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

من الذي يتقبل الله عمله؟ ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ثم قال - رحمه الله -:

لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الْبَطْلُ

(لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا) البطل: الشجاع، سُمِّيَ بطلاً؛ لأنه تَبَطَّلَ جراحته فلا يكثر لها،

ولا تَكُفُّهُ عن نجدته، وقيل: سُمِّيَ بطلاً؛ لأنه تَبَطَّلَ عنده دماء الأقران، فلا يُدْرِك عنده من ثأر.

(إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الْبَطْلُ) ليس الذي يَرُصِد للناس في طرقهم للنهب والسلب وقطع الطريق

بطلاً، بل البطل هو المتقي لله عز وجل؛ لأنه من شجاعته قهر نفسه وأبطل كيدها، وهذا كقوله

- صلى الله عليه وسلم -: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند

الغضب.

ثم قال - رحمه الله - :

وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقْلٌ

(وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ) وهي كل مُسْكِر (إِنْ كُنْتَ فَتًى) الفتى: يُطلق على الغلام الحداث ومنه

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ويُطلق على الكريم

الكامل من الرجال، ومنه قول طرفة في معلقته:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

ومنه قول الآخر:

إِنَّ الْفَتَى حَمَالٌ كُلُّ مُلِمَّةٍ لَيْسَ الْفَتَى بِمُنْعَمِ الشُّبَّانِ

والمقصود هنا المعنى الثاني أي اهجر الخمرة واترك شربها إِنْ كُنْتَ كَرِيمًا مِنْ كُمَّلِ

الرجال وشرفائهم وهذا تحضيضٌ على تركها.

ثم تعجب النَّازِمُ ممن أعطاه الله الْعَقْلَ الذي يُمَيِّزُ به بين المحاسن والقبائح، ثم يتسبب

في زوال نعمة العقل بِشُرْبِ المسكرات.

والخمر مفتاح كل شرٍّ، لهذا سُميت أمِ الْخَبَائِثِ فهي مفسدةٌ للعقل يصير شارِبها

كالمجنون ضَحَكَةً للعقلاء يلعب به الصبيان، كيف يرضى لنفسه بهذا!

وقد قيل للعباس بن مرداس في الجاهلية: لِمَ لَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ فَإِنَّهَا تَزِيدُ مِنْ جِرَاءَتِكَ؟

فقال: «مَا أَنَا بِأَخَذٍ جَهْلِي بِيَدِي فَأَدْخَلَهُ جَوْفِي، وَلَا أَرْضَى أَنْ أَصْبَحَ سَيِّدَ قَوْمٍ وَأُمْسِي سَفِيهِمُ».

وسمعت الشيخ عبد المحسن العباد - حفظه الله - ينقل عن الشيخ محمد الأمين - رحمه

الله - أنه سمعه يذكر قصة سكران كان يبول في يديه ويغسل بهما وجهه، ويقول: الحمد لله الذي أنزل من السماء ماءً طهوراً!

نسأل الله العافية.

وذكر بعضهم أنه رأى سكران واقفاً عند جدار عمارة يحاول أن يدفعها بيديه، ويقول للناس في الشارع: تعالوا ساعدوني!

نسأل الله العافية.

وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] أنه رُوي بعضهم حال سُكْرِهِ والكلب يَلْحَسُ وَجْهَهُ، وهو يقول للكلب: أكرمك الله!

وقد عقد صاحب نثر الدر في المحاضرات - وهو من كتب الأدب - باباً في نوادر أصحاب الشراب والسكران، وذكر فيه شيئاً من أخبارهم حال سكرهم.

(كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مِّنْ عَقْلٍ!) ولذلك حرّمها بعض أهل الجاهلية مروءةً لقبحها.

ذكر القرطبي في تفسيره عن قيس بن عاصم المنقري أنه كان شرّاباً لها في الجاهلية، ثم حرّمها على نفسه، وكان سبب ذلك أنه غَمَزَ عُكْنَةَ ابْنَتِهِ وهو سكران، وسَبَّ أبويه، ورأى القَمَرَ فتكلم بشيء، وأعطى الخَمَّارَ كثيراً من ماله، فلما أفاق أُخبر بذلك، فحرّمها على نفسه.

وفيها يقول:

رَأَيْتُ الْخَمَرَ صَالِحَةً وَفِيهَا	خِصَالٌ تُفْسِدُ الرَّجُلَ الْحَلِيمَا
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا صَاحِحًا	وَلَا أَشْفَى بِهَا أَبَدًا سَقِيمَا
وَلَا أُعْطِي بِهَا ثَمَنًا عِيَالِي	وَلَا أَدْعُو لَهَا أَبَدًا نَدِيمَا

فَإِنَّ الْخَمْرَ تَفْضَحُ شَارِبِيهَا وَتُجْنِيهِمْ بِهَا الْأَمْرَ الْعَظِيمَا

وصدق ابن الوردي: (كَيْفَ يَسْعَى فِي جَنُونٍ مِّنْ عَقْلٍ!).

ثم قال - رحمه الله -:

صَدَقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى رَجُلٍ يَرُصُّدُ بِاللَّيْلِ زُحْلَ

قوله: (صَدَقِ الشَّرْعَ) أي صَدَقِ الدِّينَ (وَلَا تَرْكَنْ) أي لَا تَمِلْ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا

تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣] أي لَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ (رَجُلٍ يَرُصُّدُ) أي يَرْقُبُ (بِاللَّيْلِ زُحْلَ)

زُحْلَ أحد الكواكب السيارة.

يقول: صَدَقِ الشَّرْعَ فيما جاء به، وَلَا تُصَدِّقِ الْمُنَجِّمِينَ الذين يَرُصُّدُونَ الكواكب

وَيَرْقُبُونَ النجوم لمعرفة الغيبات، ويزعمون أنها مؤثرة في العالم بالسَّعْدِ والنَّحْسِ، وعند أبي

داود أن النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قال: «من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شُعبَةً من

السحر زاد ما زاد».

وورد في الوعيد على سؤالهم قوله - صلى الله عليه وسلم -: «من أتى عَرَّافًا فسأله عن

شيء لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

هذا في سؤالهم المُجَرَّد، وأما تصديقهم فقال فيه - صلى الله عليه وسلم -: «من أتى كاهنًا

أو عَرَّافًا فسأله عن شيء فصدَّقه فقد كفر بما أنزل على محمد».

قال منصور بن الفقيه:

مَنْ كَانَ يَخْشَى زُحْلًا أَوْ كَانَ يَرْجُو الْمُشْتَرِي

فَإِنِّي مِنْهُ وَإِنْ كَانَ أَبِي الْأَذْنَى بَرِي

قيل: إن المعتصم أثناء حصار عمورية أمسك عن القتال، فسأل أحد أهل الصلاح عن السبب، فقليل له: لأن بعض المنجمين أمره بالتأخير وقال: إن الوقت ليس لك، فجاء الرجل المعتصم وقال:

دَعِ النُّجُومَ لَطُرْقِي يَعْيشُ بِهَا وَقُمْ لَوْفَتِكَ وَانْهَضْ أَيُّهَا الْمَلِكُ
إِنَّ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَ النَّبِيِّ نَهَوْا عَنِ النُّجُومِ وَقَدْ أَبْصَرْتَ مَا مَلَكُوا

فقال: إلى القتال، وفتح الله على يديه.

وفيهما قال أبو تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيُّنَ الرِّوَايَةِ بَلْ أَيُّنَ النُّجُومِ وَمَا صَاغُوهُ مِنْ زُخْرَفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُذَّتْ وَلَا غَرْبِ

ثم قال - رحمه الله -:

حَارَتِ الْأَفْكَارُ فِي قُدْرَةِ مَنْ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا عَزَّ وَجَلَّ

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

قوله: (حَارَتِ الْأَفْكَارُ) مِنَ الْحَيْرَةِ وَهِيَ الدَّهْشَةُ وَالذُّهُولُ، والمعنى: إن العقول تحيرت في عظيم قدرة الله تعالى الذي بين لنا الطرق الموصلة إلى رضوانه وجنته. فهذا حث على التفكير في آيات الله الدالة على قدرته، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على عظيم قدرته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ

الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ١٦٤﴾ ، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿ق: ٦-٨﴾ على وزن تَفَعَّلَ، ووزن تَفَعَّلَ يأتي لما يؤدي إلى الشيء ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨] أي التفكير والنظر إلى السماء فوقنا كيف بُنيت هذا يؤدي إلى التبصر للعبد المنيب.

ذكروا أن أبا نواس الشاعر رُوي بعد موته ف قيل: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. قيل:

بماذا؟ قال: بقولي في النرجس:

تَأْمَلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ
عُيُونٌ مِنْ لَجِينٍ شَاخِصَاتٍ بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبِ السَّبِيكُ
عَلَى قُضْبِ الزَّبْرِجَدِ شَاهِدَاتُ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

ثم قال - رحمه الله -:

كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ فَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلٍ

(فَلَّ) أي هَزَمَ ومنه في حديث أم زرع قول إحدى النساء عن زوجها: "زوجي غياياء أو

عياياء طباقاء، كل داءٍ له داء، شَجَّكَ أو فَلَّكَ أو جمع كُلاَّ لك "

فهي مع زوجها ما بين شج رأس أو كسر عضو أو جَمْع بينهما.

ومنه قول كعب بن زهير - رضي الله عنه - في قصيدته (بانث سعاد):

إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتْرُكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَفْلُورٌ

أي مهزوم منكسر.

(مِنْ دَوْل) أي ممالك، سُمِّيَتْ دَوْلًا لأن الله يداولها بين النَّاسِ، ولا يُدِيمُهَا لِأَحَدٍ.

يقول: إن الله كتب الموت على جميع المخلوقات والأُمم، فما أكثر ما أفنى من الممالك!

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: "ما لنا نكره الموت؟" فقال: "لأنكم عمرتم

دُنْيَاكُمْ وَخَرَّبْتُمْ أَخْرَاقَكُمْ، فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعِمَارِ إِلَى الْخَرَابِ".

أَيْنَ نُمْرُودُ وَكَنْعَانُ وَمَنْ مَلَكَ الْأَمْرَ وَوَلَّى وَعَزَلَ

(نُمْرُود) بالذال وبالذال، وهو صاحب المناظرة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] الآية.

(وَكَنْعَان) هو أبو النمرود، وقيل: هو كنعان بن نوح الذي غرق في الطوفان.

أَيْنَ عَادُ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ

(عاد) من قبائل العرب البائدة، كانت تسكن الأحقاف بُعث فيهم هودٌ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

(أَيْنَ فِرْعَوْنُ) الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الطَّاغِيَةُ الَّذِي حَكَّى اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قِصَّتَهُ فِي دَعْوَى

الرُّبُوبِيَّةِ وَإِرْسَالِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَيْهِ.

(وَمَنْ رَفَعَ الْأَهْرَامَ) ااخْتَلَفُوا فِي مَنْ بَنَاهَا عَلَى أَقْوَالٍ حَتَّى قِيلَ: إِنَّهَا مِنْ صَنْعَةِ الْجِنِّ، وَكَأَنَّهُ

من باب قول الشاعر:

وَقَدْ كَانَ أَزْبَابُ الْفَصَاحَةِ كُلِّهَا رَأَوْا حَسَنًا عَدُوَّهُ مِنْ صَنَعَةِ الْحِنِّ

ولا يُقطع بشيء من هذه الأقوال، وإنما المقطوع به دخول بانيها في هذا العموم الذي

ذكره الناظم في قوله:

كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ فَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَى مِنْ دُولٍ

(مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ) أي يظن، هذا مثل معناه: من يسمع أخبار الناس يظن ما يسمعه حقاً

ويُسيئ الظن بهم ويقع في نفسه عليهم المكروه، وهو من أمثال العرب المذكورة في كتب

الأمثال، والمعنى الملائم للأبيات هنا أن الذي يسمعُ بأخبار هذه الأمم التي فَنِيَتْ وبادتْ

لا بد وأن يتحقق ويعتقد بأن مآله أن يصير إلى ما صاروا إليه من الموت والهلاك، فعليه أن

يعتبر ويتعظ.

أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنُوا هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلُ

(أَيْنَ مَنْ سَادُوا) مِنَ السِّيَادَةِ وَهِيَ الرِّئَاسَةُ (وَشَادُوا) بَنُوا قُصُورَهُمْ بِالشَّيْدِ وَهُوَ الْجِصُّ

ورفعوها (وَبَنُوا هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلُ) إدخال «أل» على كُلٍّ مما لا يرتضيه أكثر اللغويين

والنحاة، لأنها ملازمة للإضافة لفظاً أو تقديرًا، ومثلها «بعض» و «غير» فإدخال «أل» عليها

معدودٌ من اللحن، وقد قال الشيخ محمد سالم ولد عَدُّود الشنقيطي - رحمه الله - في ديباجة

نظمه لمختصر خليل:

وَرُبَّمَا اسْتَعْمَلْتُ لَحْنًا اشْتَهَرُ كَـ (الْغَيْرِ) وَ (الْكُلِّ) اقْتِدَاءً بِالنَّفَرِ

إِذْ لَا أَرَى فِي النَّحْوِ لِي مَزِيَّةُ عَلَى شُيُوخِ الْحَيِّ مِنْ غَزِيَّةِ

يُشير إلى قول دُرید بن الصمة:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرُشِدِ

قال: (هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلُ) قُلَّةٌ كُلُّ شَيْءٍ رَأْسُهُ وَأَعْلَاهُ، والمراد هنا: القصور

العالية أي لَمْ تنفعهم قصورهم العالية ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ

مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

أَيْنَ أَرْبَابُ الْحِجَابِ أَهْلُ النَّهْيِ أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلُ

(أَرْبَابُ الْحِجَابِ) أي الْعَقْلِ وَالْفِطْنَةِ (أَهْلُ النَّهْيِ) جمع نُهْيَةٍ وهي الْعَقْلُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَايَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ﴾ [طه: ١٢٨].

(أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلُ) ذَكَرَ مَوْتَ الصَّالِحِينَ بَعْدَ ذِكْرِ هَلَاكِ الْجَبَابِرَةِ، فَالدُّنْيَا

لَيْسَتْ دَارَ بَقَاءٍ لِأَحَدٍ لَا لِلصَّالِحِ وَلَا لِلطَّالِحِ.

سَيُعِيدُ اللَّهُ كُلًّا مِنْهُمْ وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلَ

(سَيُعِيدُ اللَّهُ كُلًّا مِنْهُمْ) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

(وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلَ) سَيَجْزِي الْمُحْسِنَ عَلَى إِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ عَلَى إِسَاءَتِهِ.

تَأْهَبُ لِلَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ مِيعَادُ الْعِبَادِ

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿

[الأنبياء: ٣٥] فالأيام تمضي مُسرعة، والخلق كلهم إلى زوال ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ * وَيَبْقَى وَجْهُهُ

رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

كُلُّ نَاعٍ فَسَيُنْعَى

كُلُّ بَاكِ فَسَيُبْكَى

كُلُّ مَذْخُورٍ سَيَفْنِي
كُلُّ مَذْكَورٍ سَيُنْسِي
لَيْسَ غَيْرُ اللَّهِ يَبْقَى
مَنْ عَلا فَاللَّهُ أَعْلَى

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلَاذٌ وَمَهْرَبٌ مَتَى حُطَّ ذَا عَن نَعْشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ
نُشَاهِدُ ذَا عَيْنَ الْيَقِينِ حَقِيقَةً عَلَيْهِ مَضَى طِفْلٌ وَكَهْلٌ وَأَشْيَبُ
وَلَكِنْ عَلا الرَّأْنَ الْقُلُوبَ كَأَنَّا بِمَا قَدْ عَلِمْنَاهُ يَقِينًا نُكَذِّبُ
نُؤَمِّلُ آمَالًا وَنَرْجُو نِتَاجَهَا وَعَلَّ الرَّدَى مِمَّا نُرَجِّيه أَقْرَبُ
وَنَبْنِي الْقُصُورَ الْمُشْمَخِرَاتِ فِي الْهَوَى وَفِي عِلْمِنَا أَنَّا نَمُوتُ وَتَخْرَبُ
إِلَى اللَّهِ نَشْكُو قَسْوَةً فِي قُلُوبِنَا وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَاِعْظُ الْمَوْتِ يَنْدُبُ
وَذِكْرُ الْمَوْتِ يُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَيَحْمِلُ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ لِلْآخِرَةِ، لَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم- بزيارة القبور وبالإكثار من ذكر هادم اللذات الموت، وقال سعيد بن جبير: «لو

فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد علي».

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلَ وَغَرَّهُ طُولُ الْأَمَلِ
الْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً وَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَلِ

قال النازم - رحمه الله - :

أَيُّ بُنَيَّ اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكْمًا خُصَّصَتْ بِهَا خَيْرُ الْمَلَلِ
 اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرِ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ
 وَاحْتَفِلْ لِلْفَقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ أَوْ خَوْلِ
 وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَدَلِ
 لَا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلِ
 فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَا وَجَمَالُ الْعِلْمِ يَا صَاحِ الْعَمَلِ



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

أَيُّ بُنَيَّ اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكْمًا خُصَّصَتْ بِهَا خَيْرُ الْمَلَلِ

(أَيُّ) حرف نداء (بُنَيَّ) تصغير «ابني»، يجوز فيه أي بُنَيَّ وأي بُنَيَّ، قُرئ في المتواتر بفتح الياء وكسرهما، وقد أخرج مسلم في صحيحه قول النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - لأنس - رضي الله عنه - : «يا بُنَيَّ»، وقوله للمغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - : «يا بُنَيَّ»، ومن تراجم البخاري في الأدب المفرد (باب قول الرَّجُلِ للصَّغِيرِ يا بُنَيَّ).

قد يكون ابن الوردي أراد الابن حقيقةً فهو يوجه النصيحة والوصية لأحد أبنائه، أو ادعاءً لكمال شفقتِهِ وقَصْدِ الاستعطافِ وقبولِ النصيحة فهو يوجهها لأبناء المسلمين، ومن كان ينصح ابنه ويوصيه فهو حقيقٌ بأن يُتَحَفَّهُ بلبابِ عقلِهِ وصفوِ رأيِهِ لأنه أشفق الناس عليه، وقد قيل:

وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ

وقد رزقنا الله لبيباً ناصحاً فما علينا إلا أن نَحْتَفِي بنصحه ونُقْبِلَ عَلَيْهِ، وبامثال نصيحة الوالد المُشْفِق يحظى الابن بالسعادة والحياة الطيبة.

والنصح والإيصال من سنة الأنبياء والمرسلين، أخبرنا - سبحانه وتعالى - عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢] وعن هود - عليه السلام - أنه قال: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] وعن صالح - عليه السلام - أنه قال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩] وعن شعيب - عليه السلام - أنه قال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ وهو سنة من سار على نهجهم من العلماء والصالحين فهذا مؤمن آل فرعون قال لموسى - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾، وأبو الوليد الباجي له نصيحةٌ لَوْلَدَيْهِ ذَكَرَ فِيهَا لَهَا أَنَّهُ لَا أَنْصَحُ لِلْوَلَدِ مِنَ وَالِدِهِ، وأبو حامد الغزالي له نصيحةٌ لأحد طلبته المتقدمين اسمها: «أيها الولد»، وابن الجوزي له نصيحةٌ كتبها لابنه اسمها: «لفتة الكبد في نصيحة الولد» وأبو إسحاق الإلييري نصح لأبي بكر في تائيته التي مطلعها:

تَفْتُ فُؤَادَكَ الْيَّامُ فَتًا وَتَنَحَّيْتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا

وفيها قوله:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا
إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

وفي آخرها قوله:

بَذَلْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَاُمْتِثْلِهَا حَيَاتِكَ فَهِيَ أَفْضَلُ مَا اُمْتِثَلْتَا

والشيخ حمادُ المجلسي قال في نصيحته:

نَصِيحَةٌ مِنْ وَالِدٍ حَفِيٍّ بِكَ هُدَيْتَ الرُّشْدَ مِنْ بُنْيٍ

ومن هذه السبيل قول ابن الوردي هنا:

أَيُّ بُنْيٍ اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكْمًا خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ الْمِلَلِ

(حِكْمًا) أي نصائح وتوجيهات (خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ الْمِلَلِ) وهي ملة الإسلام، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهذه الوصايا المذكورة مشتركة بين الشرائع، لكن شريعة

نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - اخْتُصَّتْ بكمال بيانها وشدة العناية بها.

اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ

ابتدأ - رحمه الله - بالوصية بطلب العلم ونعمت الوصية، فعلامة إرادة الله - عز وجل -

بالخير أن يوفقه لطلب العلم، قال - صلى الله عليه وسلم - : «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقِهِ فِي**

الدين».

وقد عَظَّمَ الله شأن العلم وشأن أهله، وقرن شهادتهم بشهادته على أعظم مشهود به وهو

الإخلاص: لا إله إلا الله، فقال: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا**

بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] وفي هذا من شَرَفِ الْعِلْمِ ورفعة أهله ما

ينحدر عنه السيل ولا ترقى إليه الطير، ولو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه

واسم ملائكته.

وجعل سبحانه أهل العلم أهل خشيته دون غيرهم فقال: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ**

الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ومن أعظم الآيات الدالة على شرف العلم قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] انظر كيف تجد تحتها أنه ما دام آمن أهل العلم فسواء آمن غيرهم أم لا، تخيل عالمًا يقول: إذا حضر عندي فلان فسواء حضر غيره أم لا كم فيه من الشرف له! والله المثل الأعلى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦] انظر كيف أن الله تعالى يري رأيهم، لو أن عالمًا سأل سائل فقال في جوابه: فلان - لتلميذ من تلاميذه - يرى كذا وكذا، لا شك أن هذه تزكية عظيمة، والله المثل الأعلى.

وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «**إن العلماء ورثة الأنبياء**» وهذا من أعظم مناقب أهل العلم فإن الأنبياء خير الخلق، فورثتهم خير الخلق بعدهم، وفيه تنبيه إلى أنهم أقرب الناس إلى الأنبياء؛ لأن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث.

ثم حث - رحمه الله - على الجد والاجتهاد في تحصيل العلم، وحذّر من الكسل لأن الكسل طريق الحرمان، والسامة آفة طلب العلم، والمتكاسل بعيد عن الفضائل لذا قال: **(فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ)**، وقد قال بعض العلماء ينصح ابنه:

وَلَا تَتَجَمَّعْ فِي رِحَابِ الْمَدَارِسِ	بُنِيَ اجْتِهَادٌ وَادْرُسَ وَزَاجِمٌ وَنَافِسٌ
بِذِهْنٍ يُرَى مُسْتَيْقِظًا غَيْرَ نَاعِسٍ	وَكَُنْ بَاحِثًا عَنْ فَهْمٍ كُلِّ عَوِيصَةٍ
وَكَُنْ فِي جُمُوعِ الْخَيْرِ أَوَّلَ جَالِسٍ	وَكَسَّرَ جُمُوعَ اللَّهِوِ وَاضْرَمَ حِبَالَهَا
فَقُرْبُكَ مِنْهُ مُوقِعٌ فِي الْمَنَاحِسِ	وَجَانِبُ قَرِينِ السُّوءِ وَالزَّمُّ بَعَادُهُ

وقال الشيخ حافظ الحكمي في ميميته:

وَأَجْهَدُ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ لَا انْثِنَاءَ لَهُ لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدَرَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْمِ

وقال يحيى بن أبي كثير: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم».

ومن العجيب أن الإمام مسلماً - رحمه الله - أخرج هذا الأثر في صحيحه بإسناده في أحاديث المواقيت، وموطن العجب أن الإمام مسلماً - رحمه الله - وضع صحيحه للأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلماذا روى هذا الأثر عن واحدٍ من صغار التابعين ثم وضعه في أحاديث الصلاة؟ والجواب: أن الإمام مسلماً - رحمه الله - رتب روايات حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - في أوقات الصلاة ترتيباً حسناً استوعب فيه اختلاف الطرق، فأراد أن يُنبّه القارئ إلى أنه لا يُحصّل مثل هذا إلا بعد مشقة وتعبٍ في طلب العلم، ذكره القاضي عياض في «إكمال المعلم» ولما كان لعبارة يحيى بن أبي كثير وقّعها في نفس الإمام مسلم ذكرها في هذا الموضع.

وقد قال ابن القيم - رحمه الله -: «الكلمات كُلُّهَا لا تُنال إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يوصل

إليها إلا على جسرٍ من التعب».

وقال إبراهيم الحربي: «أجمع عُقلاء كل أمة على أن النعيم لا يُدرك بالنعيم».

وقال أبو تمام في قصيدته المشهورة في فتح عمورية:

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ

وللمتنبي في هذا المعنى:

لَوْ لَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِفْدَامُ قَتَالُ

وله أيضاً:

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

وله أيضًا:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ
فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْخُذْ بِالْجِدِّ وَلَا يَكْسَلْ (فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ).

اغْكُفْ عَلَى الْكُتُبِ وَادْرُسْ تَحُزْ فَخَارَ النُّبُوَّةِ
فَاللَّهُ قَالَ لِيَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةِ

قال:

وَاحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ أَوْ خَوَلٍ

يقول: اجمع همتك وذهنك للتحقق في أحكام الشريعة ولا تشتغل عن طلبه بالأموال والخول - الخول: الخدم والحشم -، فإنها قواطع تصرفك عن تحصيل العلم، والمذموم من الاشتغال بالمال والخول الزائد عن الحد المعتدل، أما الاشتغال بالقدر الذي يسدُّ به الإنسان حاجته فهو مطلوب شرعاً. وقد قيل للإمام مالك: ما تقول في العلم؟ قال: حسن جميل، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تُمسي فالزمه، وقد قال ابن الوردي - رحمه الله - في ديباجة منظومته «البهجة الوردية» في الفقه وهي نظم لكتاب الحاوي في فقه الشافعية يزيد على خمسة آلاف بيت:

وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ عَظِيمُ الْمَنْزِلَةِ قَدْ اصْطَفَى اللَّهُ خِيَارَ الْخَلْقِ لَهُ
وَالْعُمُرُ عَنْ تَحْصِيلِ كُلِّ عِلْمٍ يَقْصُرُ فَاِبْدَأْ مِنْهُ بِالْأَهَمِّ
وَذَلِكَ الْفِقْهُ فَإِنَّ مِنْهُ مَا لَا غِنَى فِي كُلِّ حَالٍ عَنْهُ

وقال الإمام الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: "عليك بالفقه فإنه كالتفاح الشامي يحمل

من عامه" يريد أن منفعتة حاضرة.

وقال ابن الجوزي في صيد خاطره: "الفقه عليه مدار العلوم" ثم قال: "فإن اتسع الزمان

للتزيد من العلم فليكن من الفقه فإنه الأنفع".

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرُ مَا بَدَلُ

(وَاهْجُرِ النَّوْمَ) المراد ترك الزائد عن الحاجة (وَحَصِّلْهُ) أي حصل الفقه في الدين (فَمَنْ

يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرُ مَا بَدَلُ) من يعرف قدر مطلوبه لا يعبا بما بدله في سبيل الحصول عليه

(يَحْقِرُ مَا بَدَلُ) أي يرهه هينا، وكأنه ناظر في هذا إلى قول سفيان الثوري: «من عرف ما يطلب

هان عليه ما يبذل».

قال الشاعر:

وَمَنْ يَضْطَبِرَ لِلْعِلْمِ يَظْفَرُ بِنَيْلِهِ وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ يَضْبِرُ عَلَى الْبَدَلِ

وَمَنْ لَا يُذِلُّ النَّفْسَ فِي طَلَبِ الْعُلَا يَسِيرًا يَعِشُ دَهْرًا طَوِيلًا أَخَا ذُلِّ

ولبعضهم:

سَهْرِي لِتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلَذُّ لِي مِنْ وَضَلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ

وَتَمَائِلِي طَرَبًا لِحَلِّ عَوِيصَةٍ أَشْهَى وَأَخْلَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِي

وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى أَوْرَاقِهَا أَخْلَى مِنَ الدُّوْكَاهِ وَالْعُشَّاقِ

وَأَلَذُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُفِّهَا نَقْرِي لِأَلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي

أَبَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبَيْتُهُ نَوْمًا وَتَبَغْيِي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي

وقال آخر:

إِذَا هَجَعَ النَّوَامُ أَسْبَلْتُ عَبْرَتِي وَأَنْشَدْتُ بَيْتًا وَهُوَ مِنَ الْطَفِّ الشَّعْرِ
أَلَيْسَ مِنَ الْخُسْرَانِ أَنَّ لِيَالِيَا تَمُرُّ بِلاَ عِلْمٍ وَتُحَسَبُ مِنْ عُمْرِي

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

لا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

من العوائق التي يضعها الشيطان أمام طالب العلم أن يزرع في نفسه اليأس من إدراك ما

أدركه السابقون فيقول: ذهب أهل العلم وذهب زمانهم وهذا زمان سوء وفتن.

يجيب عن هذا ابن الوردي - رحمه الله - فيقول:

لا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

سر في طريق العلم فكل سائر على الطريق الصحيح واصل إن شاء الله.

وقد قيل للحسن البصري: "سَبَقْنَا الْقَوْمَ عَلَى خَيْلِ دُهِمٍ وَنَحْنُ عَلَى حُمُرٍ مُعَقَّرَةٍ" فقال:

"إِنْ كُنْتَ عَلَى طَرِيقِهِمْ فَمَا أَسْرَعَ اللَّحَاقُ بِهِمْ".

قال في تخميس لامية ابن الوردي:

لا تَقُلْ: قَدْ شَتَّتْ أَصْحَابُهُ لا تَقُلْ: قَدْ بُدِّدَتْ أَحْزَابُهُ

لا تَقُلْ: قَدْ فُرِّقَتْ طُلَّابُهُ «لا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ

كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ»

فإن رضي أحد لنفسه بالدعة والكسل والتواني وقال: قد ذهب أربابه فأنشده قول

بعضهم:

فَإِنْ تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ وَفَنِيَتْ بَيْنَ الْوَرَى طُلَّابُهُ

وَعَاظَ مَاءُ عِلْمٍ ذَا الزَّمَانِ «فَذِكْرُ ذَا وَحْدَفُهُ سَيَّانٍ»

فَاقْعُدْ - فَدَيْتُكَ - مَعَ الْعِيَالِ وَلَتَخْضِبِ الْبَنَانُ غَيْرَ آلِ
وَدُونَكَ الْكُحْلَ وَالْإِدْهَانَا وَالْمَرْءُ يُزْدِي نَفْسَهُ أَخْيَانَا
وَلَا تُسَافِرْ سَفَرَةً إِلَّا الَّتِي مَعَ مَحْرَمٍ أَوْ رُفْقَةٍ مَأْمُونَةٍ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أَتَذْرِكُ الْعُلَا مَنْ قَطَّعَ الْأَوْقَاتَ نَوْمًا كَسَلَا
مَا أَجْدَرَ الْأَدَابَ وَالْمَعَالِيَا بِأَنْ تَقُولَ: مَا لَهُ وَمَا لِيَا

ولبعضهم:

وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَا وَلَمْ يُفَارِقْ أَهْلَهُ أَحْوَالَا
وَلَمْ تُقَطَّعْ رِجْلُهُ النَّعَالَا يَطْلُبُ عِلْمًا أَوْ يُصِيبُ مَا لَا
فَأَعْطَاهِ الْمِرْوَدَ وَالْمُكْحُلَهَ وَزِدْ لَهُ الْأَقْرَاطَ وَالْحُلَى لَهُ
وَدَعَهُ أَنْ يُجَالِسَ الْعِيَالَا فَذَاكَ لَا يُشَابِهُ الرَّجَالَا

ثم قال - رحمه الله -:

فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَا وَجَمَالُ الْعِلْمِ يَا صَاحِبِ الْعَمَلِ

(فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَا) أي إِذْلَالُهُ وإِهَانَتُهُ، الرَّغَامُ: التُّرَابُ، ومنه قولهم: رَغِمَ أَنْفُهُ

بكسر الغين وفتحها، وهي كناية عن الذُّلِّ، كأنه لَصِقَ أَنْفُهُ بِالرَّغَامِ هَوَانًا.

قال: (وَجَمَالُ الْعِلْمِ يَا صَاحِبِ الْعَمَلِ) وفي نسخة: (إِصْلَاحُ الْعَمَلِ).

(صَاحِبُ) ترخيم صاحب، أصله: يا صاحبي وهو شاذ؛ لأن غير المختوم بتاء التأنيث لا

يُرَخِّمُ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَمًا، وصاحب ليس بعلم.

قال الحريري:

وَقَوْلُهُمْ فِي صَاحِبٍ: يَا صَاحِبِ شَذُّ لِمَعْنَى فِيهِ بِاصْطِلَاحِ

والعلم إنما يكون جمالاً لصاحبه إذا كان مقروناً بالعمل: (وَجَمَالُ الْعِلْمِ يَا صَاحِبَ الْعَمَلِ)

وقد قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-: «لا يكون الرجل عالمًا حتى يكون بالعلم عاملاً»
وقديماً قيل: «عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ كَشَجَرٍ بِلَا ثَمَرٍ».

العلم بلا عمل حُجَّةٌ على صاحبه قال -صلى الله عليه وسلم-: «والقرآن حجةٌ لك أو

عليك».

والعلم بلا عمل من أسباب الصرف عن الخير قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

[الأعراف: ١٤٦].

والعلم بلا عمل صاحبه ليس بعاقل: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ

الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقد قال الإمام مالك: بلغني عن القاسم بن محمد أنه قال: «أدركتُ الناس وما يُعجبهم

القول، إنما يُعجبهم العمل».

وكان سفيان الثوري يتمثل:

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً عَلَيْكَ وَلَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ حَامِلُهُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا فَإِنَّمَا يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ عَامِلُهُ

وقد قال الإلبيري في تائيته:

وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طُولُ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْ رَأَسْتَ

فَلَا تَأْمَنُ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُ بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَ

والعبد مسؤول يوم القيامة عن العمل بالعلم قال - صلى الله عليه وسلم - : « لا تزول قدما

عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن ... » وذكر أربعة منها : « وعن علمه فيم فعل » وفي رواية : « وماذا

عَمِلَ فيما عِلِمَ » .

وللخطيب البغدادي في هذا المعنى كتابٌ صغيرٌ الحجم ، عظيمُ النفعِ يَحَسُنُ الرجوعُ إليه

اسمه : « اقتضاءُ العلمِ العمل » .

قال الناظم - رحمه الله - :

جَمَلِ الْمَنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلْ
وَانْظِمِ الشُّعْرَ وَلَا زِمَ مَذْهَبِي فَاطَّرَاخُ الرَّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقْلْ
فَهُوَ عُنوانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا أَحْسَنَ الشُّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَدَلْ
مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلْ
أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبْلْ
إِنْ جَزَيْتَنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي رِقِّهَا أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَبْلْ
أَعَذَّبُ الْأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ: خُذْ وَأَمْرُ الْقَوْلِ نُطْقِي: بِلَعْلْ
مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةً وَعَنْ الْبَحْرِ ارْتِشَافٌ بِالْوَشْلْ



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

قال ابن الوردي - رحمه الله - :

جَمَلِ الْمَنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلْ
(جَمَلِ الْمَنْطِقِ) أي النُّطْقُ وهو الكلام (بِالنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ) هو هنا بمعنى النحو
(بِالنُّطْقِ اخْتَبَلْ) أي تَحَيَّرَ.

يقول: زَيْنُ كلامك وجَمَلُ نطقك بمعرفة النحو والإعراب، فمن جهل النحو أخطأ واختبل في
النطق أي دخل كلامه الفساد.

وفي البيت ذِكْرُ فائدةٍ عظيمةٍ لعلم النحو: وهي صَوْنُ اللسان عن الخطأ في الكلام.
وما مِنْ عِلْمٍ مِنْ علومِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا وَافْتقارُهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ بَيِّنٌ لَا يُدْفَعُ، وَمَكشُوفٌ لَا يَتَّقَعُ، فكم

من مسائل فقهية سبب الخلاف فيها مَرَدُّهُ إلى النحو وقد قال الجرمي: "أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيويه".

وكذلك في العقيدة فإن الجهل بالنحو والعربية كان سبباً في وقوع كثير من الانحرافات كما قال أبو عمرو بن العلاء: "أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية"، وقال الحسن البصري: "أهلكتهم العُجْمَة".

وكذلك في التفسير، وقد قال الإمام مالك: "لا أُوتى برجل يُفسّر القرآن وهو لا يعرف العربية إلا جعلته نكالا".

وكذلك في الحديث، وقد قال الأصمعي: "إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في قوله - صلى الله عليه وسلم - : «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه".

قال الحافظ العراقي في ألفية الحديث:

وَلْيَحْذَرِ اللَّحَّانَ وَالْمُصَحِّفَا عَلَى حَدِيثِهِ بِأَنْ يُحَرِّفَا
فَيَدْخُلَا فِي قَوْلِهِ: «مَنْ كَذَبَا» فَحَقُّ النَّحْوِ عَلَى مَنْ طَلَبَا

وقد قال وكيع: "أتيت الأعمش أسمع منه الحديث، وكنت ربما لحنت فقال لي: يا أبا سفيان تركت ما هو أولى بك من الحديث، فقلت: يا أبا محمد وأي شيء أولى من الحديث؟ قال: النحو، فأملى علي الأعمش النحو ثم أملى علي الحديث".

وقد دخل بعض الطلبة على عالمٍ ليعرض عليه الحديث، فجعل يقرأ ويلحن لحناً منكراً

فقال له العالم: "أنت كنت بإقامة لسانك قبل هذا الشأنِ أخرى".

وسمع أبو عمرو رجلاً يتكلم في الفقه ويلحن، فأعجبه فقهه واستقبح لحنه، فقال: "إنه لخطاب لو ساعده صواب" ثم قال للرجل: "إنك لأخوجُ إلى إصلاح لسانك من جميع الناس".

وقال بعضهم: "اللحن في الكلام أقبح من الجُدريِّ في الوجه".

وصدق ابن الوردي:

جَمَلِ الْمَنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلَ

ومن طريف ما يُروى أن أعرابياً دخل سوقاً فسمعهم يلحنون، فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح.

قال:

وَأَنْظِمِ الشَّعْرَ وَلَا زِمَ مَذْهَبِي فَاطْرَاحُ الرَّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقْلُ

(وَأَنْظِمِ الشَّعْرَ) الشعر: الكلام الموزون المُقَفَّى قصداً، قال في مجدد العوافي:

الشَّعْرُ مَوْزُونُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ مَعَ قَصْدٍ وَزْنِهِ بِوَزْنِ الْعَرَبِ

قوله: (وَلَا زِمَ) الملازمة: التعلُّق والمصاحبة (مَذْهَبِي) طريقتي (فَاطْرَاحُ الرَّفْدِ) الرِّفْد:

العطية والإعانة (فِي الدُّنْيَا أَقْلُ) وفي نسخة: (أَفْلُ).

على نسخة: (أَقْلُ) المعنى: فطرح العطية وإلقاؤها في الدنيا قليل، والأكثر أخذها

وقبولها، وعلى نسخة: (أَفْلُ) المعنى: غاب وذهب.

وفي نسخة: (فِي اطْرَاحِ الرَّفْدِ فَالدُّنْيَا أَقْلُ) أي لازم مذهبي واتبع طريقتي في اطراح الرِّفد

أي في عدم التكسب بالشعر فالدنيا أقل أي لا تقصدها بشعرك.

وفي نسخة: (فِي اطْرَاحِ الرَّفْدِ لَا تَبْغِ النَّحْلَ) لا تطلب النحل وهي العطايا، وهذا نهي عن

التكسب بالشعر.

وقد ذكر ابن الوردي ذلك عن نفسه في مواضع من شعره، فقال في حائيته التي مطلعها:

أَقْتُلْ بَيْنَ جِدِّكَ وَالْمِزَاحِ بِنَبْلِ جُفُونِكَ الْمَرْضَى الصَّحَاحِ

قال:

وَمَا أَنَا شَاعِرٌ حَاشَا عُلُومِي وَلَسْتُ أَرَى التَّكْسِبَ بِامْتِدَاحِي
فَلِي مِنَ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ مَالٌ يَصُونُ عَنِ احْتِيَاجٍ وَاجْتِيَاحِ

وقال في قصيدة له أخرى:

حَمَى اللَّهُ شِعْرِي عَنْ ذِلَّةٍ فَلَا يَسْتَكِينُ وَلَا يَخْضَعُ
وَإِنَّ اكْتِسَابَ الْفَتَى بِالْمَدِيحِ مُهِينٌ لَهُ مُؤَلِّمٌ مُوجِعُ

يقول ابنُ الوردي في بيته هذا من اللامية: قُلِ الشَّعْرَ تَأْذُبًا لَا تَكْسُبًا، ولا تجعل مقصودك

من نظم الشعر جَمْعَ الأموالِ ومنافقةَ الكبراءِ وأخذَ العطايا كما يفعله كثير من الشعراء.

ثم قال - رحمه الله -:

فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا أَحْسَنَ الشَّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ

(فَهُوَ عُنْوَانٌ) العنوان: ما يُسْتَدَلُّ به على الشيء (على الفضل) أي الزيادة في حسن

الصفات.

نَظْمُ الشَّعْرِ إِذَا خَلَا عَنِ الْمُحْرَمِ كَهَجَاءِ مُسْلِمٍ أَوْ التَّغْزَلِ بِمَعِينٍ، وخلا صاحبه عن

التكسُّب به فهو دليلٌ على فضل صاحبه.

(وَمَا أَحْسَنَ الشَّعْرَ إِذَا لَمْ يُتَدَلَّ) أي إذا لم يُمتَهَن.

يقول: ما أجمل الشعر إذا لم يُمتَهَن بالكذب في القول ولم يُنتقص بالنفاق في المدح أو الاعتداء في الهجاء، فهذا حسان بن ثابت - رضي الله عنه - وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - وغيرهم من شعراء الصحابة - رضي الله عنهم - رفعهم شعرهم ودل على فضلهم.

قال - صلى الله عليه وسلم - لحسان - رضي الله عنه -: **«اهْبِجْهُمْ وَرُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ»**

وقال: **«إِنْ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَ حَسَانَ مَا نَفَحَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»**.

وابن رواحة - رضي الله عنه - قال الشعر في الحَرَمِ:

**خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ**

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي حرم الله تقول الشعر، فقال له النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -: **«خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، لَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقَعِ النَّبْلِ»**.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فقد قال - صلى الله عليه وسلم -: **«لَأَنْ يَمْتَلِيَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ -**

أَيُفْسِدُهُ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَ شَعْرًا» فكيف يُجمع بين هذا وبين الثناء على من نافح عن

رسول الله من الشعراء؟

فالجواب: أن الذم إنما هو في حق من كان الشعر مستوليًا على قلبه حتى شغله عن القرآن والحديث.

ومن يقرأ قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦] ثم ينقطع نفسه هنا ولا يقرأ الاستثناء الذي يرفع اللائمة عن المؤمنين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧] هو كمن يقرأ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] ولا يكمل ما بعدها.

ثم قال - رحمه الله -:

مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلْ

يقول: إن الكرام ماتوا، وبقي الأراذل ومن يعتمدون على أنسابهم الذين يقولون: يكفيني أن أبي فلان أو أن نسبي يرجع إلى فلان، ولم يدروا أن «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». قال - صلى الله عليه وسلم -: «يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حُفَالَةٌ» الحُفَالَةُ والحُثَالَةُ بمعنى وهو الرديء من كل شيء «كحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بِأَلِهِ» أي لا يُقيم لهم وزنًا ولا يعاب بهم. أخرجه البخاري وبوب عليه (باب ذهاب الصالحين).

وعند البخاري قوله - صلى الله عليه وسلم -: «لَا يَأْتِي عَامٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقُوا رَبَّكُمْ».

والخير - والله الحمد - باقٍ في الأمة، قال - صلى الله عليه وسلم -: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرٌ وَهُمْ كَذَلِكَ».

وقال - صلى الله عليه وسلم -: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» بضم الكاف

أي أَشَدُّهُمْ هَلَاكًا، وهذا هو الأشهر في الرواية.

وَضَبِطَ: «فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» بفتح الكاف أي هو الذي جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا في

الحقيقة.

ومقصود ابن الوردي - رحمه الله - أن أهل الفضل يذهبون شيئاً فشيئاً.

قوله: (أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلْ) فيه أن ترك السعي لتحصيل الكمالات اعتماداً على

النسب من علامات الجهل، والعامل يعلم أن كماله بأدبه لا بنسبه، قال الشاعر:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمْتُ أَوَائِلُنَا أَبَدًا عَلَى الْأَخْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وفي المثل: «كُنْ عَصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا» يريدون قول الشاعر:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامَا
وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا

ثم قال - رحمه الله -:

أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبْلِ

يقول: أنا لا أقبل يدًا لشخص موصوف بالصفات القبيحة كالكفر والفسق والظلم، فإن

قطع تلك اليد أحسن من تقبيلها.

إِنْ جَزَيْتَنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي رِقِّهَا أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَجَلُ

يقول: السبب الحامل على عدم تقبيل تلك اليد أنها إن أعطتني شيئاً مقابل مدحها صرت

رقيقاً للإحسان وعبداً للعطية، وإذا لم تعطني (فَيَكْفِينِي الْخَجَلُ) لأنني لم أنل العطية، والمؤمن

العاقل يستغني بالله، وقد ورد أن جبريل قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: «واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس». وقد بايع النبي -صلى الله عليه وسلم- بعض الصحابة على عدم سؤال الناس شيئاً لأن السؤال فيه ذلٌ وافتقار، قال الراوي: «فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه».

وقال الحسن البصري: «لا تزال كريماً على الناس ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك».

قال:

أَعَذَبُ الْأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ خُذْ وَأَمْرُ الْقَوْلِ نُطْقِي بِلَعَلْ

البيت يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أن الذي يُعطي خيراً من الذي يسأل ويُمَنّي نفسه العطاء ويقول: لعل فلاناً يُعطينا (**وَأَمْرُ الْقَوْلِ نُطْقِي بِلَعَلْ**) أي لعل فلاناً يعطيني، وهذا معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «**اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى**».

والمعنى الآخر: أن قول (لَعَلَّ) عند وعد السائل بالعطاء مذموم عند الكرام كما قيل: «اعتذارٌ مقبول خيرٌ من وعد ممطول».

أعذب الألفاظ عند أهل الكرم قولهم للسائل: خُذْ، وأما أهل البُخل فإن أعذب الألفاظ عندهم قولهم للسائل: لا، يقول أهل البُخل: «قُولُ (لا) يدفع البلاء، وقُولُ (نَعَمْ) يُزيل النِّعم». ويقولون: «**مِنْ فَضْلِ (لا)**»: أنها افتتاح كلمة التَّوْحِيدِ».

ثم قال -رحمه الله-:

مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةً وَعَنْ الْبَحْرِ ارْتِشَافٌ بِالْوَشَلِ

(كِسْرَى) كسرى لقب كل مَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ.

(ارتشافٌ بالوشل) الارتشاف: المَصُّ وتناول الماء بالشفيتين، وفي نسخة: (اجتزاءٌ

بالوشل).

(الوشل) الماء القليل الذي يتقاطر من أعلى الجبل، وقد يُطلق على الكثير.

يقول: مُلْكُ كِسْرَى العريضُ تُغْنِي عَنْهُ كِسْرَةُ خُبْزٍ، والبحر الكثير الماء يُغْنِي عَنْهُ الماء

القليل، فبكسرة خبز يندفع الجوع، وبالماء القليل يندفع العطش كما قال الشاعر:

الْجُوعُ يُطْرِدُ بِالرَّغِيفِ الْيَابِسِ فَعَلَامَ تَكْثُرُ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي

دخل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يوماً على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

وهو على حصيرٍ وقد أَثَّرَ فِي جَنْبَيْهِ، فبكى عمر -رضي الله عنه- فقال له رسول الله -صلى الله

عليه وسلم-: ما يُبْكِيكَ؟ قال: ذُكِرْتُ كِسْرَى وَقِصِرَ فِي الْخَزْ وَالِدِيَّاجِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى

هَذَا؟ فقال له النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَابِ، أَمَا تَرْضَى أَنْ

تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟ قال: بلى، قال: فهو كذلك».

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ يَكْفُلُ لِي أَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ وَأَتَكْفُلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟ فقال

ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً».

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كِفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا أَتَاهُ».

قال الناظم - رحمه الله - :

اعْتَبِرْ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ﴾
 لَيْسَ مَا يَخْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ
 تَلَقَّهُ حَقًّا وَبِالْحَقِّ نَزَلَ
 اطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا
 لَا وَلَا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالْكَسَلِ
 عِيشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِهَا
 تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ
 عِيشَةُ الْجَاهِدِ بَلْ هَذَا أَذَلْ
 وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ
 كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثَرِّ مُكْثَرٌ
 وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلِ
 إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيلِ
 فَاتْرُكِ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّئِدْ
 فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلِ
 أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنْلُ مِنْهَا الْمُنَى



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

لا يزال ابن الوردي - رحمه الله - يَمَحْضُكَ نَصْحَهُ، وَاسْتَحْضِرْ فِيهَا سِيَائِي مِنَ الْأَبْيَاتِ فِي

هذه القصيدة قوله لَكَ فيما سبق:

أَيُّ بَنِي اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ
 حِكْمًا خُصَّصَتْ بِهَا خَيْرُ الْمَلَلِ

قال - رحمه الله - :

اعْتَبِرْ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ﴾
 تَلَقَّهُ حَقًّا وَبِالْحَقِّ نَزَلَ

(اعْتَبِرْ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ﴾) تأمل في هذه الآية: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ (تَلَقَّهُ حَقًّا) ثابتًا موافقًا للواقع (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) متلبسًا بالحق نزل.

يقول: تأمل هذه الآية تجد ما فيها صدقًا مطابقًا للواقع، فالناس فيهم الغني والفقير وكلُّ

مُبتَلَى، فالفقير مُبتَلَى ليصبر، والغني ليشكر، وأمرُ الرزق مفروغ منه كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ

الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿﴾ أخبر عن الخلق والرّزق بصيغة الماضي لأنه فُرغَ منهما، وأخبر عن الإماتة والإحياء بالمضارع لأنهما مستقبلان.

لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ لَا وَلَا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالْكَسَلِ
(لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى) يناله ويملكه (مِنْ عَزْمِهِ) مِنْ جِدِّهِ واجتهاده (لَا وَلَا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالْكَسَلِ) يقول: ما مَلَكَه الفتى ليس باجتهاده بل بقدر الله وإرادته، وما فاته من الرزق ليس بِكَسَلِهِ بل بقدر الله وإرادته، فالمراد: أن الحرص لا يجلب الرزق بذاته، ولا الكسل يمنعهُ بذاته، بل كل ذلك بالقضاء والقدر، كما قال ابن زريق البغدادي في يتيّمته:

وَمَا مُجَاهِدَةُ الْإِنْسَانِ تُوصِلُهُ رِزْقًا وَلَا دَعَا الْإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ
قَدْ وَزَعَ اللَّهُ بَيْنَ الْخَلْقِ رِزْقَهُمْ لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مِنْ خَلْقٍ يُضَيِّعُهُ
لَكِنَّهُمْ كَلِفُوا حِرْصًا فَلَسَتْ تَرَى مُسْتَرْزِقًا وَسِوَى الْغَايَاتِ تُقْنِعُهُ
وَالْحِرْصُ فِي الرِّزْقِ وَالْأَرْزَاقُ قَدْ قُسِمَتْ بَغْيِي أَلَا إِنَّ بَغْيِي الْمَرْءِ يَضْرَعُهُ

وهذه الأبيات من قصيدة له غراءً بديعةً لَمْ يصلنا له غيرها، يُقال: «مَنْ تَحَتَّمَ بِالْعَقِيقِ،

وَقَرَأَ لِأَبِي عَمْرٍو، وَتَفَقَّهَ لِلشَّافِعِيِّ، وَحَفِظَ قَصِيدَةَ ابْنِ زُرَيْقٍ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الظَّرْفَ».

كان ابن زريق البغدادي قد خرج من بغداد إلى الأندلس ليمدح أبا عبد الرحمن الأندلسي لأنه بلغه أنه يُعطي الشعراء، فلما وصل إلى الأندلس وقطع هذه المسافات كُلَّهَا وألقى قصيدته بين يديه لَمْ يُعطه إلا دريهمات يسيرة قيل: إنه أراد أن يَبْلُوَهُ ويختبره، فقال ابن زريق: إنا لله وإنا إليه راجعون، سلكت البراري والبحار والمهامه والقفار إلى هذا الرَّجُلِ فأعطاني هذا العطاء النَّزَرَ فانكسرت إليه نفسه واعتَلَّتْ فمات.

وشغل عنه الأندلسي أيامًا ثم سأل عنه فخرجوا يطلبونه فوجدوه قد مات وعند رأسه

رُقعة مكتوبة فيها هذه الأبيات:

لا تَعْذِلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يُولِعُهُ
جاوَزَتْ فِي لَوْمِهِ حَدًّا أَضَرَّ بِهِ
فاسْتَعْمِلِي الرَّفْقَ فِي تَأْنِيهِ بَدَلًا
قَدْ كَانَ مُضْطَلَعًا بِالْخَطْبِ يَحْمِلُهُ
يَكْفِيهِ مِنْ لَوْعَةِ الشَّتِيتِ أَنَّ لَهُ
مَا آبَ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَأَزْعَجَهُ
كَأَنَّمَا هُوَ فِي حَلٍّ وَمُرْتَحِلٍ
إِذَا الزَّمَانُ أَرَاهُ فِي الرَّحِيلِ غَنَى
تَأْبَى الْمَطَامِعُ إِلَّا أَنْ تُجَشِّمَهُ
وَمَا مُجَاهِدَةُ الْإِنْسَانِ تُوصِلُهُ

إلى أن قال:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا
وَدَعْتُهُ وَبِوَدِّي لَوْ يُودِّعُنِي
كَمْ قَدْ تَشَفَّعَ بِي إِلَّا أَفَارِقُهُ
وَكَمْ تَشَبَّثَ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضَحَى
لَا أَكْذِبُ اللَّهَ ثَوْبُ الصَّبْرِ مُنْخَرِقُ
إِنِّي أَوْسَعُ عُذْرِي فِي جَنَائِتِهِ
أُعْطِيتُ مُلْكًا فَلَمْ أَحْسِنُ سِيَاسَتَهُ
بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الْأَزْوَارِ مَطْلِعُهُ
صَفُو الْحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أُوَدِّعُهُ
وَلِلضَّرُورَاتِ حَالٌ لَا تُشَفِّعُهُ
وَأَذْمُعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمُعُهُ
عَنِّي بِفُرْقَتِهِ لَكِنْ أَرْقِعُهُ
بِالْبَيْنِ عَنْهُ وَقَلْبِي لَا يُوسِّعُهُ
وَكُلُّ مَنْ لَا يَسُوسُ الْمُلْكَ يُخْلَعُهُ

وَمَنْ غَدَا لَابِسًا ثَوْبَ النَّعِيمِ بِلَا شُكْرِ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزِعُهُ

وكون ما ملكه الفتى ليس باجتهاد بل بقدر الله سبحانه وتعالى لا يُنافي الأخذ بالأسباب

فإنه مطلوب شرعاً قال الله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥] وقال

تعالى: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ويجب مع مباشرة الأسباب

التوكل على الله - سبحانه وتعالى - قال - صلى الله عليه وسلم - : «لو توكلتم على الله حق

توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فذكر أنها تغدو وتروح في طلب

الرزق، وهذا أخذ بالأسباب مع التوكل. وقال - صلى الله عليه وسلم - للأعرابي: «اعقلها

وتوكل» فأمر بالأخذ بالأسباب والتوكل على خالقها، وقد قيل للإمام أحمد: ما تقول في

رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتي رزقي، فقال: «هذا رجل جهل

العلم، أما سمع قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»

وقال حين ذكر الطير: «تغدوا خماصاً وتروح بطاناً».

قال - رحمه الله - :

اطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ

(اطْرَحِ الدُّنْيَا) وَأَخْرِجْ حُبَّهَا مِنْ قَلْبِكَ، وَإِذَا حَوَيْتَ شَيْئاً مِنْهَا فليكن في يدك لا في قلبك،

(فَمِنْ عَادَاتِهَا تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ) يقول: لا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بالدنيا فإنها دار غرور

وامتحان، يُرْفَعُ فيها السَّفَلَةُ والجُهَالُ استدراجاً، وَيُخَفِّضُ فيها الأشراف والفضلاء من جهة

المال والمناصب ابتلاءً واختباراً. قال - صلى الله عليه وسلم - : «لو كانت الدنيا تَزُنُّ عند الله

جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» لكنه - سبحانه وتعالى - أعطاهم منها لحقارتها

وهوانها أمام نعيم الآخرة الذي أُعد للذين آمنوا فليست هي ميزان الرِّفعة، بل هي كما قال - صلى الله عليه وسلم -: «سجن المؤمن وجنة الكافر» فالدنيا يُعطيها الله تعالى من يُحب ومن لا يُحب، وأما الدين فلا يُعطيها الله تعالى إلا لمن أحب.

قال - رحمه الله -:

عِيشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِهَا عِيشَةُ الْجَاهِدِ بَلْ هَذَا أَذَلُّ

(عِيشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِهَا) الرَّاغِبُ عَنْهَا الرَّاضِي مِنْهَا بِالزَّهْدِ أَيْ بِالْقَلِيلِ (عِيشَةُ الْجَاهِدِ) أَيْ الْمُنْهَمَكُ فِي تَحْصِيلِهَا (بَلْ هَذَا أَذَلُّ) مِنَ الذُّلِّ وَهُوَ الْمَهَانَةُ.

يقول: حياة الزاهد في الدنيا كحياة المنهمك في تحصيلها في أن كُلاًّ منهما لا ينال إلا ما كتبه الله له، ثم أضرب عن التساوي فقال: بل الحريص عليها المبالغ في تحصيلها أَذَلُّ لِمَا يترتب على حبها والتعلق بها من التذلل والانكسار لأصحابها.

كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثْرٍ مُكْثِرٌ وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ

(كَمْ) خبرية بمعنى كثير (جَهُولٍ) أي شخص كثير الجهل (وَهُوَ مُثْرٍ مُكْثِرٌ) (مُكْثِرٌ) تفسير لـ (مُثْرٍ) (وَعَلِيمٍ) أي كثير العلم (مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ) جمع علة وهي ما يتغير به الحال كالمرض.

يقول: الدنيا فيها جهلاء كثيرون لكنهم أغنياء، وفيها علماء كثيرون لكنهم فقراء يكابدون مشاقَّها كما قال: (وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ) وما أكثر العلماء الذين لَمْ يُفْتَحْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وما نالوا شيئاً من زهرتها ابتلاءً وامتحاناً وادِّخاراً لأجورهم يوم القيامة، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

إِنَّ الْفَقِيهَ هُوَ الْفَقِيرُ وَإِنَّمَا رَأَى الْفَقِيرَ تَجَمَّعَتْ أَطْرَافُهَا
أي فصارت الرأى هاء.

وقال بعضهم:

قُلْتُ لِلْفَقْرِ: أَيْنَ أَنْتَ مُقِيمٌ قَالَ لِي: فِي عَمَائِمِ الْفُقَهَاءِ
إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لِإِخَاءٍ وَعَزِيزٌ عَلَيَّ تَرْكُ الْإِخَاءِ

وقال آخر:

عَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا بِتَقْدِيمِ جَاهِلٍ وَتَأْخِيرِ ذِي عِلْمٍ فَقَالَتْ: خُذِ الْعُذْرَا
بَنُو الْجَهْلِ أَبْنَائِي لِذَاكَ رَفَعَتْهُمْ وَأَهْلُ التُّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتِي الْأُخْرَى

وينبغي لأهل العلم أن يسعوا في طلب الرزق الحلال، وأن يكون لهم كسب يغنيهم عن سؤال الخلق ويُعِفُّهم.

قال بعضهم: «نِعَمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْيَسَارَ».

وقال سفيان الثوري: «لَأَنْ أُخَلِّفَ عَشْرَةَ آلَافٍ يَحَاسِبُنِي اللَّهُ عَلَيْهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أحتاج إلى النَّاسِ».

وقال أبو الدرداء: «مِنْ فَقْهِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ اسْتِصْلَاحُهُ مَعِيشَتُهُ».

ونظير هذا قول الشاعر:

تَمُوتُ الْأُسْدُ فِي الْغَابَاتِ جُوعًا وَلَحْمُ الضَّأْنِ تَأْكُلُهُ الْكِلَابُ
وَعَبْدٌ قَدْ يَنَامُ عَلَى حَرِيرٍ وَذُو نَسَبٍ مَفَارِشُهُ التُّرَابُ

قال - رحمه الله -:

كَمْ شَجَاعٍ لَمْ يَنْلُ مِنْهَا الْمُنَى وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلِ

(كَمْ شُجَاعٍ) من الشجاعة وهي قوة القلب (لَمْ يَنْلُ مِنْهَا الْمُنَى) ما يتمناه ويرجوه (وَجَبَانٍ) وهو ضد الشجاع (نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلِ) غاية الأمل: نهايته وآخره.

يقول: كثيرٌ من الشجعان لم يبلغوا آمالهم فعاشوا محرومين، وكثير من الجبناء أدركوا نهاية آمالهم وغاية أحلامهم، وهذا لانقلاب أحوال الدنيا. والمراد بهذا: التخفيفُ على العقلاء وتسليّة الشجعان والتحذير من الاغترار بالدنيا، وقد قال تعالى في التحذير من الدنيا والنهي عن الاغترار بها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [فاطر: ٥]، وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾

[النساء: ٧٧].

فَاتْرُكِ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّئِدْ إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيلِ

(فَاتْرُكِ الْحِيلَةَ) من الاحتيال وهو الوصول إلى المحبوب بالطرق الخفية والأساليب الذكية (وَاتَّئِدْ) أي تَرَفَّقْ واطرق العجلة (إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيلِ).

يقول: تَرَفَّقْ في طلب الدنيا ولا تعجل في تحصيلها ولا تُبالغ في ذلك، فخيرُ حيلةٍ لطلب راحة النفس والبدن هي ترك الحرص على الدنيا؛ لأن الأرزاق بيد الله - سبحانه وتعالى - يبسطها لمن يشاء ويضيّقها على من يشاء ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] وقال - صلى الله عليه وسلم -: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ» أي اسلكوا سُبُلَهُ الجميلة ولا تُبالغوا في ذلك «إِنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، خَذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا

ما حُرِّمَ.

وقال - صلى الله عليه وسلم - : «أَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنْ كُنَّا مَيَسَّرَ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

ثم قال - رحمه الله - :

أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنْلَ مِنْهَا الْمُنَى فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلِ

الكف: الراحة مع الأصابع سُميت بذلك لأن الإنسان يكف بها الأذى عن نفسه.

(بالشلل) الشَّلَلُ: تَقَبُّضُ العضو وعدم حركته، قال في موطأة الفصيح:

وَشَلَّتِ الْيَدُ وَمَعْنَى الشَّلَلِ تَقَبُّضُ الْكَفِّ لِبَعْضِ الْعِلَلِ

هذا دعاء من النَّازِمِ على البخيل لأن البخل صفة مذمومة شرعاً وعقلاً وعرفاً، وقد قال

تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى

عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] وفي الحديث: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ» وكان - صلى الله عليه وسلم -

يستعيز بالله من البخل في كل صباح ومساء يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن،

والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال».

قال بعض الحكماء: «لو لم يكن في البخل إلا سوء الظن بالرب سبحانه وتعالى في الخلف

لكان عظيمًا، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩].

وقد قال العلماء: «منع الموجود سوء ظنَّ بالمعبود».

وقال الشعبي: «ما أفلح بخيل قط، أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾».

وقال الحسن البصري: «لَمْ أَرَّ أَشَقَى بِمَالِهِ مِنْ بَخِيلٍ؛ لَأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا مُهْتَمٌّ بِجَمْعِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ مُحَاسِبٌ عَلَى مَنْعِهِ، عَيْشُهُ فِي الدُّنْيَا عَيْشُ الْفُقَرَاءِ، وَحَسَابُهُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابُ الْأَغْنِيَاءِ».

وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا».

وفي الصحيحين قال - صلى الله عليه وسلم -: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ عَلَيْكَ».

وقال - صلى الله عليه وسلم -: «اتَّقُوا الشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

وقال - صلى الله عليه وسلم -: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

قال الناظم - رحمه الله - :

لَا تَقُلْ: أَصْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ
 قَدْ يَسُودُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَبِحُسْنِ السَّبكِ قَدْ يُنْفَى الزَّغَلُ
 وَكَذَا الْوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلُ
 مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكَرٍ اتَّصَلَ
 قِيَمَةُ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ أَكْثَرَ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقَلُ
 اكْتُمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَى وَاكْتَسِبِ الْفُلْسَ وَحَاسِبْ مَنْ بَطَلَ
 وَادَّرِغْ جِدًّا وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ صُحْبَةَ الْحَمَقَى وَأَرْبَابِ الْخَلَلِ
 بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلِ رُتْبَةٍ وَكِلا هَذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَلَ



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

قال ابن الوردي - رحمه الله - :

لَا تَقُلْ: أَصْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ
 (لَا تَقُلْ: أَصْلِي) آبَائِي (وَفَضْلِي) ذَرِيَّتِي (أَبَدًا إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ)

يقول الناظم: لا تقل: يكفيني شرف آبائي وذريتي وفضلهما، ثم تترك السعي إلى الشرف
 بأعمالك الصالحة، فإن شرفك بفضلك لا بأصلك، ومكانتك بأدبك لا بنسبك، قال - صلى
 الله عليه وسلم - : «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

كُنْ ابْنُ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدَبًا يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
 إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: هَآنَذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: كَانَ أَبِي

وقال آخر:

إِذَا افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ قُلْنَا: صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

ومعرفة النسب أمرٌ مطلوب، لقوله - صلى الله عليه وسلم -: «اعرفوا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» ولقوله - صلى الله عليه وسلم لحسان حين أراد أن يهجو قريشاً: «لا تفعل فإن لي فيهم نسباً، فأنت أبا بكر فليُخبرك به، فجاءه فقال: لَأُسَلِّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين» فمعرفة الأنساب أمرٌ مطلوب إلا أنه لا يجوز التفاخر بها، قال - صلى الله عليه وسلم -: «لينتهين أقوامٌ عن فخرهم بالآباء أو ليكوننَّ عند الله كالجعلان التي تدفع النتن بأنفها» وقال - صلى الله عليه وسلم -: «أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن» وذكر منها «الفخر بالأحساب» وقال - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله أذهب عنكم عُبيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم، وآدم من تُراب».

ثم قال - رحمه الله -:

قَدْ يَسْوُدُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَبِحُسْنِ السَّبكِ قَدْ يُنْفَى الزَّغْلُ

(قَدْ) (قد) هنا للتكثير (يَسْوَدُ) من السيادة وهي الشرف والمجد (الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبِي) أي من غير أبٍ سيِّدٍ حُذفت الصفة وبقي الموصوف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] أي ليس من أهلك الناجين (وَبِحُسْنِ السَّبكِ) السَّبكِ: تخلص الشيء من خبثه، ومنه سبك الذهب (قَدْ يُنْفَى الزَّغْلُ) (قد) هنا للتحقيق (يُنْفَى الزَّغْلُ) أي الخَبْثُ والغش. وفي نسخة: (قَدْ يُنْفَى الدَّغْلُ) وهو بمعناه فالدغل الفساد.

يقول: إن المرء قد يكون شريفاً وأصله ليس كذلك كما هو كثيرٌ في الحياة وذلك بسبب همة الإنسان وعنايته بتكميل نفسه كما أن الذهب والفضة يُستخرجان من الأرض مختلطتين

بالشوائب، ثم تُصنَع منهما سبائك الذهب والفضة التي تَخْطَفُ الأبصار ببريقها ولمعانها، ولكن ذلك يتوقف على حُسن السبك، والشرف وقدر العبد عند الله إنما هو بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وليس بالأنساب ولا بالأحساب. وأكثر العلماء في القرن الثاني من الموالى كالحسن وقتادة وعطاء ومكحول وسيبويه، وليس في القراء السبعة صريح النسب إلا أبا عمرو وابن عامر، كما قال الشاطبي:

أَبُو عَمْرٍهِمُ وَالْيَحْصَبِيُّ ابْنُ عَامِرٍ صَرِيحٌ وَبَاقِيهِمْ أَحَاطَ بِهِ الْوَلَا

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

وَكَذَا الْوَرْدُ مِنَ الشُّوكِ وَمَا يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلٍ

(النَّارِجِسُ) بكسر النون وفتحها والأقيس الكسر كما في المصباح، وهو نبت زكي الرائحة.

يقول: إن الورد مع جمال لونه وحُسن شكله يطلع من شجر الشوك المؤذي طبعاً، وكذا النرجس مع حُسن نضارته وطيب رائحته يطلع من البصل وهو مُرُّ الطعم خبيث الرائحة. فهذه أمثلة تدل على أن الشرف قد يحصل للإنسان دون آبائه، فلا يمنع الإنسان نقص أصله عن تحصيل الشرف والسيادة.

وبقي من الأمثلة التي ساد فيها الشيء على أصله: العسل فإنه مع حلاوة طعمه وكونه شفاءً يخرج من بطون النحل التي هي من جنس الحشرات. والحرير فإنه مع نعومته وجماله يخرج من دودة ضعيفة قبيحة الشكل.

والمسك أصله: الدم.

والخل أصله: الخمر، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «نِعَمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ».

ثم قال ابن الوردي -رحمه الله-:

مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكَرٍ اتَّصَلَ

يقول: لا تتوهم أيها المخاطب أن نصيحتي لك بعدم الاعتماد على النسب سببها كوني مقطوع النسب فأنا بحمد الله يتصل نسبي بأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أفضل الأولين والآخرين بعد الأنبياء والمرسلين، وإخبار الناظم بذلك هو من باب دفع التهمة عن النصيحة والتحدث بنعمة الله عليه.

قِيَمَةُ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ أَكْثَرَ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقَلُّ

يقول: إن قدر الإنسان ومكانته بحسب ما يُتقنه من العلوم والصنائع، فمن كان عالماً على غيره لا يُحسن شيئاً فلا قيمة له، وأصل هذا المعنى ما يُروى عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: «قيمة المرء ما يُحسنه».

ثم قال -رحمه الله-:

اَكْتُمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنًى وَاكْتَسِبِ الْفَلَسَ وَحَاسِبْ مَنْ بَطَلَ

(اَكْتُمِ الْأَمْرَيْنِ) أي استر وأخف الأمرين (فَقْرًا وَغِنًى وَاكْتَسِبِ الْفَلَسَ وَحَاسِبْ مَنْ بَطَلَ)

من البطالة وهي ترك العمل، يُقال: بَطَلَ يَبْطُلُ بَطَالَةً إِذَا تَعَطَّلَ فَهُوَ بَطَالٌ.

يقول -رحمه الله-: لا تُظهر فقرك فيتجراً عليك السفهاء، ولا تُعلن غناك فيحسدك

النَّاسُ، وهذا قوله: (اَكْتُمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنًى).

يقول: ولا تترك الكسب فتدَلَّ بالحاجة وهذا قوله: (وَاكْتَسِبِ الْفَلَسَ).

يقول: وانصح العاقل عن العمل وحُضُّهُ على الكسب وترك البطالة، وهذا قوله:

(وَحَاسِبٌ مَنْ بَطَلَ) ونظير هذا البيت قول الآخر:

لَا تُظْهِرَنَّ لِعَاذِرٍ أَوْ عَاذِلٍ حَالِيكَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
فَلِرَحْمَةِ الْمُتَوَجِّعِينَ مَرَارَةً فِي الْقَلْبِ مِثْلُ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

والكسب مطلوب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ

وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] هذه الآية أصل في الجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة،

وهي طريقة الأنبياء فداود - عليه السلام - كان يصنع الدروع ويتعيش بثمنها ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ

لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وزكريا - عليه السلام - كان نجارًا، وموسى -

عليه السلام - آجر نفسه على عفة فرجه وطعام بطنه، ونبينا - صلى الله عليه وسلم - كان في

التجارة ورعي غنم، وهكذا أصحابه الكرام رضي الله عنهم، وقد كان عمر - رضي الله عنه -

يُبَغِّضُ الرَّجُلَ العاقل ويقول: «يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم واتجروا، ولا تكونوا عيالاً

على الناس» وقال: «إني لأكره أن أرى أحدكم سهلاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة» وقال

ابن مسعود: «إني لأمقتُ الرجلَ أراه فارغاً ليس في شيء من عمل دنيا ولا آخرة».

ثم قال - رحمه الله -:

وَادَّرْغٌ جِدًّا وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ صُحْبَةَ الْحَمْقَى وَأَرْبَابَ الْخَلَلِ

(وَادَّرْغٌ جِدًّا) أي اجعل الجدَّ درعاً لك، والدرع: قميص من حديد يلبسها المقاتل

(وَالْجِدُّ) الاجتهاد (وَالْكَدُّ) هو الكدح والسعي (وَاجْتَنِبْ صُحْبَةَ الْحَمْقَى) الحمقى جمع

أحمق من حماقة وهي ضعف العقل (وَأَرْبَابَ) أصحاب (الْخَلَلِ) الاضطراب وعدم

الانتظام.

يقول: اجعل السعي والاجتهاد في كسب الرزق وتحصيل المعاش كالدرع التي تدفع عنك المذلة والحاجة إلى الناس.

وقد ترك سعيد بن المسيب - رحمه الله - بعده أربع مئة دينار وقال: «والله إني ما تركتها إلا لأصون بها عرضي أو قال وجهي».

وقال أيوب السخيتاني: «كان أبو قلابة يقول لي: يا أيوب الزم سوقك فإن الغنى من العافية».

وقد سبق في المجلس الماضي أن أهل العلم ينبغي أن يكون لهم من الكسب الحلال ما يُعفهم ويُغنيهم عن الخلق، وسبق ذكر شيء من الآثار عن السلف في ذلك.

ثم قال: **(وَاجْتَنِبْ صُحْبَةَ الْحَمَقَى وَأَرْبَابِ الْخَلَلِ)** يقول: اجتنب صحبة المغفلين لأن ذلك يضر بأخلاقك؛ فالطباع سرّاقة والإنسان يتأثر بجلسائه. قال الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارَنِ يَقْتَدِي
وقال بعضهم:

مَنْ عَاشَرَ الْأَشْرَافَ صَارَ مُشَرَّفًا وَمُعَاشِرُ الْأَنْذَالِ غَيْرُ مُشَرَّفٍ
فَانْظُرْ إِلَى الْجِلْدِ الْحَقِيرِ مُقَبَّلًا بِالشَّغْرِ لَمَّا صَارَ جِلْدَ الْمُصْحَفِ
وقد قال الشاعر:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا
فينبغي اجتناب صحبة الحمقى، وقد قال الأحنف: «إني لأجالس الأحمق ساعة فأجد ذلك في عقلي» ومن شواهد ما في صحبة الحمقى من الشرّ قصة ذلك الرجل مع الدُّب الذي

أحسن إليه يقول النّاظم:

رَوَى أُولُو الْأَخْبَارِ
 أَبْصَرَ فِي صُخْرَاءِ
 دُبَّاءٍ عَظِيمًا مُوثِقًا
 يَغْوِي عُوَاءَ الْكَلْبِ
 فَأَذْرَكَتُهُ الشَّفَقَةُ
 وَحَلَّاهُ مِنْ قَيْدِهِ
 وَنَامَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
 طُولَ الطَّرِيقِ وَالسَّفَرِ
 فَجَاءَ ذَاكَ الدُّبُّ
 وَقَالَ: ذَاكَ الْخِلُّ
 أَنْقَذَنِي مِنْ أَسْرِي
 فَحَقُّهُ أَنْ أَرْضِيَهُ
 فَأَقْبَلْتُ ذُبَابَهُ
 فَوَقَعْتُ لِحَيْنِهِ
 فَجَاشَ غَيْظُ الدُّبِّ
 لَا أَدْعُ الذُّبَابَا
 فَأَسْرَعَ الدَّبِيبَا
 فَقَلَّهَا وَأَقْبَلَا
 حَتَّى إِذَا حَاذَاهُ
 عَنِ رَجُلٍ سَيَّارِ
 فِسِيحَةٍ الْأَرْجَاءِ
 فِي سَرْحَةٍ مُعَلَّقَا
 مِنْ شِدَّةٍ وَكَرْبِ
 عَلَيْهِ حَتَّى أَطْلَقَهُ
 لِأَمْنِهِ مِنْ كَيْدِهِ
 مَنَامٍ مَنْ قَدْ أَضَجَرَهُ
 فَنَامَ مِنْ فَرْطِ الضَّجَرِ
 عَنْ وَجْهِهِ يَذُبُّ
 جَفَاهُ لَا يَحِلُّ
 وَفَكَ قَيْدَ عُسْرِي
 مِنْ كُلِّ سُوءٍ قَصْدَهُ
 تَرِنُ كَالرَّبَابَةِ
 عَلَى شِفَارِ عَيْنِهِ
 وَقَالَ: لَا وَرَبِّي
 يَسُومُهُ عَذَابَا
 لِصُخْرَةٍ قَرِيبَا
 يَسْمَعِي إِلَيْهِ عَجَلَا
 صَكَ بِهَا مَجْلَاهُ

لِيَقْتُلَ الذُّبَابَهُ	مِنْ غَيْرِ مَا إِرَابَهُ
فَرَضَ مِنْهُ الرَّاسَا	وَكَسَّرَ الْأَضْرَاسَا
وَأَهْلَكَ الْخَلِيلَا	بِفِعْلِهِ الْجَمِيلَا
فَهَذِهِ الرُّوَايَةُ	تَنْهَى عَنِ الْغَوَايَةِ
فِي طَلَبِ الصَّدَاقَةِ	عِنْدَ أُولِي الْحِمَاقَةِ
إِذْ كَانَ فِعْلُ الذُّبِ	هَذَا لِفَرْطِ الْحُبِّ
وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِ	نَقْلًا عَنِ الْمَسِيحِ
عَالَجْتُ كُلَّ أَكْمَةٍ	وَأَبْرَصٍ مُشَوِّهٍ
لَكِنِّي لَمْ أُطِقْ	قَطُّ عِلَاجَ الْأَحْمَقِ

يُشير إلى ما يروى عن عيسى -عليه السلام- أنه قال: «أعياني دواء الأحمق، وما أعياني

دواء الأكمه والأبرص».

ومن شواهد هذا قول الشاعر:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا	مُضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَأَيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ	فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عُلَاكَ وَتَصْغُرَا
فَرَفَعُ (أَبُو مَنْ) ثُمَّ خَفَضُ (مُزَمِّلٍ)	يُبَيِّنُ قَوْلِي مُغْرِيًا وَمُحَذِّرَا

(أبو) لما أضيف إلى ما له صدر الكلام وهو (مَنْ) الاستفهامية صار له صدرُ الكلام،

هذا قوله:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا	مُضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
--	--

(ومزمل) يُشير به إلى قول امرئ القيس في معلقته:

كَانَ أَبَانَا فِي أَفَانِينَ وَدَقِهِ كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ

(مزمل) صفة لقوله: (كبير أناس) فحقه أن يُرفع، لكنه لما جاور مجروراً وهو قوله:

(بجَادٍ) جُرَّ، فكَذَلِكَ لَنْ تَجِدَ طَالِبَ عِلْمٍ كَانَ مَرْفُوعًا فَجُرَّ إِلَّا حِينَ جَاوَرَ السَّاقِطِينَ. هذا قوله:

وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عِلَّاكَ وَتَصْغُرَا
فَرَفُعُ (أَبُو مَنْ) ثُمَّ خَفُضُ (مُزْمَلٍ) يُبَيِّنُ قَوْلِي مُغْرِبًا وَمُحَدِّثًا

وقال آخر:

إِذَا مَا اللَّيَالِي جَاوَرَتْكَ بِسَاقِطٍ وَقَدْرُكَ مَرْفُوعٌ فَعَنْهُ تَرَحَّلِ
أَلَمْ تَرَ مَا لَاقَاهُ فِي جَنْبِ جَارِهِ (كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ)

وقد قال أبو الفتح البستي في عنوان الحكم:

مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صَلٌّ وَثُعْبَانٌ
(مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ) أي سكن إليهم وصاحبهم (نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صَلٌّ)

والصَّلُّ: الحية التي لا ينفع فيها دواء لشدة سمها القاتل، (وَتُعْبَانٌ) نوع من الحيات

الطوال القاتلة، فما ظنك بحال من نام وفي قميصه صَلٌّ وُثُعْبَانٌ! فالأشرار لا يُصحبون لأنهم

يسحبون.

أَنْتَ فِي النَّاسِ تُقَاسُ بِالَّذِي اخْتَرْتَ خَلِيلَا
فَاصْحَبِ الْأَخْيَارَ تَعْلُو وَتَنْلُ ذِكْرًا جَمِيلَا
صُحْبَةُ الْخَامِلِ تَكْشُو مَنْ يُؤَاخِيهِ خُمُولَا

وقد قال مالك بن دينار للمغيرة بن حبيب: «يا مغيرة انظر كل جليس وصاحب لا تستفيد

في دينك منه خيرًا فانبذ عنك صحبته».

وقال سفيان الثوري: «ليس شيءٌ أبلغ في فساد رجلٍ وصلاجه من صاحب».

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلِ رُتَبَةٍ وَكِلَا هَذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَلَ

يقول: كُن وسطاً بين التبذير والبُخل، فكلُّ من هذين إن زاد عن حدِّه أهلك صاحبه. قال

تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

[الإسراء: ٢٩] المعنى: لا تمسك يدك عن الإنفاق وهو البُخل، ولا تبذّر في الإنفاق فتصير ملوماً

يلومك الناس على البُخل إن أمسكت وتصير محسوراً فارغ اليد لا تجد ما تُنفقه إن بذّرت.

وقد مدح الله عباده الصالحين بتوسطهم في الإنفاق فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ

يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] والتبذير مذموم يكفيك فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْذِرْ

تَبْذِيرًا﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]، وقوله

تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] والبُخل كذلك مذموم يكفيك فيه

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

قال الناظم -رحمه الله- :

لا تَخْضُ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا إِنَّهُمْ لَيُسُّوْا بِأَهْلِ لِلزَّلَلِ
وَتَغَافِلُ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ لَمْ يَفْزُ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ
لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدِّ وَإِنْ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ
غَبَّ عَنِ النَّمَامِ وَاهْجُرْهُ فَمَا بَلَغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلَ
دَارَ جَارِ الدَّارِ إِنْ جَارَ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النُّقْلَ



قَالَ الشَّارِحُ -وَفَقَّهُ اللَّهُ- :

قوله: (لا تَخْضُ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا) مِنَ الْخَوْضِ فِي الْأَمْرِ وَهُوَ الدَّخُولُ فِيهِ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِيْمَا يُذَمُّ الدَّخُولُ فِيهِ (إِنَّهُمْ لَيُسُّوْا بِأَهْلِ لِلزَّلَلِ).

يقول: لا تُورِطْ نَفْسَكَ بِالْوُقُوعِ فِي شَتَمِ سَادَاتِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِأَنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالنَّاظِلُونَ لِلدِّينِ، وَالطَّعْنُ فِيهِمْ طَعْنٌ فِي الدِّينِ، فَالْوَاجِبُ حُسْنُ الظَّنِّ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُحَلًّا لِلْهَوَى، وَالْوَاجِبُ فِي حَقِّهِمْ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وَقَدْ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «لَا تَسْبُوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا».

قال الطحاوي: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو غير السبيل».

وقال ابن عساكر: «لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة،

ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب، ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال:

وَتَغَافِلُ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ لَمْ يَفُزْ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ

التغافل هو التظاهر بالغفلة وهي غيبة الشيء عن البال.

يقول: أظهر من نفسك الغفلة عن أمور الناس غير المحمودة فإنه لا يظفر بالثناء إلا من أعرض عن عيوب الناس واجتهد في سترها وإصلاحها، وفي المثل: «تَغَافَلَ كَأَنَّكَ وَاسِطِي» أصله: أن الحجاج أراد أن يبنى مدينة بين البصرة والكوفة، فكان يُسَخِّرُ أهلها في البناء، فكانوا يهربون وينامون وسط الغرباء في المسجد، فيجيء الشرطي ويقول: يا واسطي فمن رفع رأسه أخذه، فكانوا يتغافلون. قال في الشمقمقية:

وَكُنْ كَمِثْلِ وَاسِطِي غَفْلَةً عَنْ شَتْمِ ضَارِعٍ وَعَتَبِ سُقُقٍ

الضارع: الضعيف، والسُّقُق: المُغتابون للناس.

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

والتغافل دليل العقل قال أبو تمام:

لَيْسَ الْغَيْبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

ولما قيل للإمام أحمد: تسعة أعشار العقل في التغافل؟ قال: «بل العقل كله في التغافل».

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّكَ إِنْ تَتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ» أو قال:

«كَدَّتْ تُفْسِدُهُمْ».

قال:

لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدِّهِ وَإِنْ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ

يقول: إن الإنسان لا يسلم من شخص مخالفٍ معانِدٍ، ولو حاول الابتعاد عن النَّاسِ والانتقطاع في قمم الجبال، فالظلم والإيذاء من طبائع النفوس: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال المتنبي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

وقال المَعَرِّي:

الظُّلْمُ أَكْثَرُ مَا يَعِيشُ بِهِ الْفَتَى وَأَقْلُ شَيْءٍ عِنْدَهُ الْإِنْصَافُ

والأنبياء رغم كريم صفاتهم وكمال أخلاقهم لم يسلموا من العداوة والإيذاء، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

قال ابن عبد البر - رحمه الله - في «جامع بيان العلم وفضله»: «وقد روي أن موسى - عليه السلام - قال: يا رب اقطع عني ألسن بني إسرائيل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لم أقطعها عن نفسي فكيف أقطعها عنك!».

وعلاجه بالصبر والتسلي بالفضلاء الماضين وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «يرحم الله أخي موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر».

ثم قال - رحمه الله -:

غِبْ عَنِ النَّمَامِ وَاهْجُرْهُ فَمَا بَلَغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلَ

وفي بعض النسخ: (مِلْ عَنِ النَّمَامِ وَازْجُرْهُ) أي انْهَهِ وَارْزَعْهُ.

يقول: أَعْرِضْ عَنِ النَّمَامِ وَلَا تَصْحَبْهُ، لأنه إذا نقل إليك حديثاً مكروهاً فسينقل حديثك

إلى غيرك كما قال الحسن البصري: «مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ».

وفي المثل: «مَا غَاظَكَ إِلَّا مَنْ بَلَغَكَ» كما قال هنا: (فَمَا بَلَغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلَ).

والنميمة من كبائر الذنوب، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ»

وفي رواية: «نَمَامٌ» قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] وقال -صلى الله عليه وسلم-:

«أَلَا أُبَيِّكُمْ مَا الْعُضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» وفي الحديث أن رسول الله -صلى الله

عليه وسلم- مرَّ بقبرين فقال: «إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ

مِنْ بَوْلِهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ».

ثم قال -رحمه الله-:

دَارِ جَارَ الدَّارِ إِنْ جَارَ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النُّقْلُ

وفي رواية: (دَارِ جَارَ السُّوءِ)

(دَارِ) من المداراة وهي بذل الدنيا لإصلاح الدين أو الدنيا، وهي محمودة، أما المداهنة

فمذمومة وهي بذل الدين لإصلاح الدنيا، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] قال

في مطهرة القلوب:

وَبَاذِلُ الدِّينِ لِإِصْلَاحِ الدُّنَا مُدَاهِنٌ فِي بَيْعِهِ قَدْ غُبِنَا

(النُّقْلُ) جمع نُقْلَةٍ، وهي التحوُّل من مكانٍ إلى آخر.

يقول في هذا البيت: لَا طِفَ الْجَارِ وَلِنْ مَعَهُ فِي الْكَلَامِ وَإِنْ ظَلَمَكَ وَأَذَاكَ، واصبر على

إساءته وقبيح أخلاقه، فإن ضاق بك الأمر وعجزت عن الصبر فعليك بالتحول وتغيير المسكن ففي ذلك راحة البال وسكون النفس.

والمدارة ليست خاصة بالجار بل هي شاملة لكل أحد وفيها سلامة الدين والدنيا، وهي دليل عقل الإنسان وسعة صدره، والأصل في فضل المدارة قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] أي ادفع شره وأذاه بأحسن الأخلاق، وقد بوب البخاري في صحيحه: "باب المدارة مع النَّاس" وأخرج تحته حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رجلاً استأذن على النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فقال: «ائذنوا له فبئس ابن العشيرة» أو قال: «بئس أخو العشيرة» فلما دخل ألان له الكلام، قالت: «فقلتُ له: يا رسول الله، قلتَ ما قلتُ ثم أَلَنْتَ له في القول فقال: «أي عائشة إن شر النَّاس منزلة عند الله من تركه أو قال: وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».

ومن أحق النَّاس بالمدارة الزوجة كما ثبت عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «فدارها تَعِشْ بها» أي أحسن سياستها وتغافل واعف واصبر فإن استقامة حالك معها لا يتم إلا بذلك. وقد قال الخطابي:

مَا دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي دَارِ الْمُدَارَةِ

والصبر على أذى الجار من أخلاق المؤمنين، وهو من الإكرام المأمور به: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» وقال الحسن البصري: «ليس حُسْنُ الجوار كفَّ الأذى عن الجار، ولكنَّ حُسْنَ الجوار الصبرُ على أذى الجار».

قال الناظم - رحمه الله - :

جَانِبِ السُّلْطَانِ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ لَا تُخَاصِمْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ
 لَا تَلِ الْحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا رَغْبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَدَلَ
 إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءُ لِمَنْ وَلِيَ الْأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَدَلَ
 فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَاتِهِ وَكِلا كَفَّيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغْلُ
 إِنَّ لِنَقْصِ وَالِاسْتِثْقَالِ فِي لَفْظَةِ (القاضي) لَوْغْظًا وَمَثَلُ
 لَا تُوَاظِي لَذَّةَ الْحُكْمِ بِمَا ذَاقَهُ الْمَرْءُ إِذَا الْمَرْءُ أَنْعَزَلَ
 فَالْوِلَايَاتُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ ذَاقَهَا فَالسُّمُّ فِي ذَاكَ الْعَسَلُ
 نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَى جَلْدِي وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَةِ السَّفَلِ



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

قال ابن الوردي - رحمه الله - :

جَانِبِ السُّلْطَانِ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ لَا تُخَاصِمْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

(السُّلْطَانُ) السلطان: صاحب الولاية العامة، ويُلحق به كل من له قوة وشوكة، وأصله من

السلطة وهي التمكن من القهر: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

(واحذر بطشه) البطش: الأخذ بعُنْفٍ.

يقول ابن الوردي: تباعد عن السلطان واحذر جبروته، ولا تُظهر له المخاصمة والعناد،

لأنه قادرٌ على فعل تهديده.

يريد الناظم لك أن تحذر وتبتعد عن مواطن الفتن، وقد قال حذيفة - رضي الله عنه - :

«إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء».

وقال ميمون بن مهران: «إن في صُحبة السلطان خطرين: إن أطعته خاطرت بدينك، وإن

عصيته خاطرت بنفسك، والسلامة ألا يعرفك».

وقال الفضيل بن عياض: «اجتنبوا أبواب الملوك فإنكم لا تُصيرون من دُنياهم شيئاً إلا

أصابوا من آخرتكم ما هو أفضل منه».

ومقصود السلف من النهي عن الدخول على السلاطين: الحفاظ على دين العالم من

النفاق والمداهنة ومن الإقرار على المنكر، فإن أمن العالم من ذلك ودخل ناصحاً داعياً إلى

الله بالحكمة والموعظة الحسنة فهو مأجورٌ على ذلك.

لَا تَلِ الْحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا رَغْبَةً فِيكَ وَخَالَفَ مَنْ عَدَلَ

(عَدَلَ): لَمْ وَعَاتَبَ.

يقول: لا تكن قاضياً وحاكماً بين الناس، وإن طلبوا منك ذلك رغبةً فيك، وخالف من

لامك على ترك القضاء وعاتبك على الإعراض عنه، وذلك لخطر القضاء، وقد قال النبي -

صلى الله عليه وسلم-: «**الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: اِثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ: رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ وَقَضَى**

بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَلَمْ يَقْضِ بِهِ وَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ لَمْ

يَعْرِفَ الْحَقَّ فَقَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ».

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «**مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ فَقَدْ ذُبِحَ بَغِيرَ سَكِينٍ**» وهذه كنايةٌ عن

هلاك الدين، وشدة الألم.

وقد قال بعض الشعراء في قاضٍ جائر:

وَلَمَّا أَنْ تَوَلَّيْتَ الْقَضَايَا وَفَاضَ الْجَوْرُ مِنْ كَفِّكَ فَيْضًا
ذُبَحْتَ بِغَيْرِ سَكِّينٍ وَإِنَّا لَنَرْجُو الذَّبْحَ بِالسَّكِّينِ أَيْضًا

ولهذا امتنع عن القضاء كثير من العلماء، ومحل هذا الذي ذكره إذا وُجد غيره ممن يكون أهلاً للقضاء، أما إذا لم يوجد غيره وكان هو أهلاً للقضاء فهو واجب عليه لأن القضاء من فروض الكفايات التي لا تستقيم أمور الناس إلا بها.

ثم قال - رحمه الله -:

إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءُ لِمَنْ وَلِيَّ الْأَحْكَامِ هَذَا إِنْ عَدَلَ

يقول: لا تل القضاء بين الناس لأن نصفهم أعداء لمن ولي القضاء إن عدل، لأن كل قضية فيها طرفان: طرفٌ محكومٌ له، وطرفٌ محكوم عليه، والمحكوم عليه ساخط.

(هَذَا إِنْ عَدَلَ) أما إذا لم يعدل، فأكثر الناس أعداؤه.

قال - رحمه الله -:

فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَدَّاتِهِ وَكَذَا كَفَّيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغْلُ

فالحاكم كالشخص المحبوس عن لذاته يُحرَم من أشياء كثيرة يوجبها منصب القضاء من قبول هدية وإجابة دعوة وذهاب إلى سوق، يتحفظ القاضي من كثير من ذلك.

ثم أخبر عن حاله يوم القيامة فقال: (وَكَذَا كَفَّيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغْلُ) يُشير إلى قوله - صلى الله عليه وسلم -: «مِنْ أَمِيرِ عَشْرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا، لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ أَوْ يُؤْبَقُهُ الْجَوْرُ» أخرجه أحمد وقوى إسناده محققوه.

وكلامه هذا محمولٌ على القاضي الظالم، أما القاضي العادل فإنه من الصفوة الذين

يُكرمهم الله بأن يظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -:
«سبعة يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» قال: **«إمام عادل»**.

والنّاظم - رحمه الله - أطلق ذم القضاء وهذا الكلام ينبغي أن يفهم على وجهه، وأن
يوضع في محله كما يفهم من حديث: **«القضاة ثلاثة»** وقد سبق قريباً.

وقد قال ابن عاصم - رحمه الله - في مقدمة نظمه «تحفة الحُكّام في نظم العقود والأحكام»:

وَذَاكَ لَمَّا أَنْ بُلِيتُ بِالقَضَا بَعْدَ شَبَابٍ مَرَّ عَنِّي وَانْقَضَى
وَأَنَّنِي أَسْأَلُ مِنْ رَبِّ قَضَى بِهِ عَلَيَّ الرِّفْقَ فِيمَا قَدْ قَضَى
وَالْحَمْلَ وَالتَّوْفِيقَ أَنْ أَكُونَا مِنْ أُمَّةٍ بِالحَقِّ يَعْدِلُونَا
حَتَّى أَرَى مِنْ مُفْرَدِ الثَّلَاثَةِ وَجَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ لِي وَرَائِهِ

ثم أشار ابن الوردي إلى نكتة لطيفة فقال:

إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالِاسْتِثْقَالِ فِي لَفْظَةِ (القَاضِي) لَوَعْظًا وَمَثَلًا

(وَمَثَلٌ) وَقَفَ بالسكون على لغة ربعة الذين يقفون على المنون بالالف بالسكون بدون

ألف.

قال ابن مالك في الكافية الشافية:

كَذَا لَدَى رَبِيعَةِ الْمُنَوْنِ فِي نَضْبٍ أَوْ فِي غَيْرِهِ يُسَكَّنُ

كلمة القاضي من الأسماء المنقوصة عند النُّحاة التي تُقَدَّرُ فيها الضمة والكسرة حال

الرفع والجبر، مثلاً «جاء القاضي» ما إعراب القاضي؟ الجواب: فاعل مرفوع وعلامة رفعه

ضمة مقدرة، لماذا قُدرت الضمة؟ الجواب: للثقل، فالقاضي اسم منقوص تُقَدَّرُ عليه الضمة

وكذا الكسرة للثقل.

يقول ابن الوردي: هذا النقص والثقل في كلمة القاضي ينبغي أن يكون واعظاً لك، فلا تتولى القضاء.

وكلام النّازِم - كما سبق - محمولٌ على من لم يتعيّن في حقه القضاء أو من لا يكون أهلاً لأنه يُعرض نفسه لظلم العباد وسخط الله سبحانه وتعالى، أما من كان أهلاً للقضاء يَعْرِف الحقَّ ويقضي به فلا حرج عليه في توكّله القضاء.

ثم قال - رحمه الله -:

لا تُوازى لَذَّةُ الْحُكْمِ بِمَا ذَاقَهُ الْمَرْءُ إِذَا الْمَرْءُ انْعَزَلَ
وفي نسخة: (ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعَزَلَ).

يقول: إنّ لذة الحكم لا تُساوي مرارة العزل بل العزل أشد على النفس وأثقل على القلب، وفي المثل: «العزل طلاق الرجال، وحَيْضُ الْعُمَالِ».

وقد قال شاعرٌ في آخر يُكنى أبا عليّ كان قد وَلِيَ ولايةً خمسين سنة يتصرف ولا يتبدل، فقال فيه الشاعر:

وَقَالُوا الْعَزْلُ لِلْعُمَالِ حَيْضٌ لَحَاهُ اللَّهُ مِنْ حَيْضٍ بَغِيضٍ
فَإِنْ يَكُ هَكَذَا فَأَبُو عَلِيٍّ مِنْ اللَّائِي يَسْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

فَالْوِلَايَاتُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ ذَاقَهَا فَالْسُّمُ فِي ذَاكَ الْعَسَلِ

يقول: إن المناصب وتولّي الأحكام وإن استلذّته النفوس وانبسطت له لِمَا فيه من حلاوة نفوذ التصرف والأمر والنهي إلا أن هذه المناصب كالعسل الذي فيه سُمٌّ قاتل، ظاهره فيه

الرحمة وباطنه من قبَلِهِ العذاب، وقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن طلب الولاية والحرص عليها فقال: «يا عبدالرحمن بن سُمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيَتْها عن مسألة وَكَلْتَ إليها، وإن أُعطيَتْها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها» وقال - صلى الله عليه وسلم -: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» ويُستثنى من عموم النهي: القويُّ الذي إذا تولى كان بسبب تَوَلَّيهِ صلاح الأمة ودرء المفساد عنها، فمثْلُ هذا لا حرج في أن يطلب الولاية وعليه حُمل قول يوسف - عليه السلام -: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

ثم قال - رحمه الله -:

نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَى جَلْدِي وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَةِ السَّفَلِ
(نَصَبُ) تَعَبُ (الْمَنْصِبِ) الْوَلَايَةِ (أَوْهَى) أَضْعَفَ (جَلْدِي) قَوِيَّ وَتَحَمَّلِي، وفي نسخة: (جَسَدِي)، ونسخة (جَلْدِي) - باللام - أفخم.

(وَعَنَائِي) تعبِي ومشقتي (مِنْ مُدَارَةِ السَّفَلِ) أي الأراذل من النَّاسِ.

يقول: إن نصب المناصب ومشقة المداراة للأراذل أضعف قوتي وأصابني بالوهن. والناظم يقول ما يقوله عن خبرة وتجربة فإذا كانت المناصب إرهاقاً وتعباً لأصحابها فكيف يحرص عليها العاقل! وهذا الذي قاله ينبغي - كما سبق - أن يُوضَعَ موضعه فمن كان أهلاً للقضاء ولهذه المناصب فلا ضير عليه في تَوَلَّيْها بل قد يتعين عليه تَوَلَّيْها إذا لم يوجد غيره ويستعين بالله على أداء حق الله تعالى فيها وحق الخلق.

قال الناظم - رحمه الله - :

قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ
 إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ
 غِبْ وَزُرْ غَبًّا تَزِدْ حُبًّا فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ الْمَلَلِ
 خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلَلِ
 لَا يَضُرُّ الْفَضْلَ إِقْلَالُ كَمَا لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفَلِ



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

قال ابن الوردي - رحمه الله - :

قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ

يقول: قصّر آمالك في طلب الدنيا، فإنك إن فعلت ذلك ظفرت بالخير والسلامة وذلك

دليل عقل الإنسان، وقد ذم الله تعالى الاسترسال وراء الآمال وتطويل حبلها فقال تعالى:

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، ومن طال أمله ساء عمله.

وفي هذا المعنى قوله - صلى الله عليه وسلم - : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وإذا كان الواحد منا لا يدري متى يأتيه الموت فينبغي أن يكون مستعداً للرحيل في كل

وقت، وألا يركن إلى الدنيا، وأن يكون حظه منها حظَّ الغريب الذي سيفارق البلد الذي هو

فيه، أو حظَّ المسافر الذي يكفيه من الزاد ما يُبلِّغه غايته، إذا علمت ذلك فينبغي أن تجتهد في

ما خلقت له وهو عبادة الله تعالى، قال الإلييري:

وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرْهَا وَلَكِنْ لِتَعْبُرْهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَ

عَقَدَ بهذا ما يُروى عن عيسى -عليه السلام- أنه قال: «اعْبُرُوا الدُّنْيَا وَلَا تَعْمُرُوهَا».

ثم قال -رحمه الله-:

إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ
الغِرَّةُ: الغفلة، والوَجَلُ: الخوف.

وهذا تعليل للبيت الذي قبله أي قَصَّرَ الآمال؛ لأنَّ المنيَّةَ تطلبك، والمنيَّةُ تُدرك كلَّ أحدٍ، لكنَّ مَنِيَّتَكَ أنت تطلبك أنت.

وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَا صَاحِبَ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا
فالموت يطلبك طلباً صادقاً حتى كأنك تُبصره حين تسمع أن فلاناً مات وتصلي على فلان فتعلم أنه نازل بك لا محالة، فالواجب أن تستعد له.

ثم قال -رحمه الله-:

غِبْ وَزُرْ غِبًّا تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ الْمَلَلُ
(غِبْ) مِنَ الْغَيْبَةِ وَهِيَ ضِدُّ الْحُضُورِ (وَزُرْ غِبًّا) أَي يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ (تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ) أَمْرَضَهُ (الْمَلَلُ) الضَّجَرُ.

يقول: كُنْ مَعْتَدلاً فِي زِيَارَةِ النَّاسِ وَمُعَاشَرَتِهِمْ وَلَا تُكْثِرْ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَكُونَ ذَلِكَ سَبِيلًا إِلَى الْمَلَلِ، وَهَذَا مَاخُودٌ مِنْ قَوْلِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «زُرْ غِبًّا تَزِدُ حُبًّا» وَقَدْ صَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ بِطَرَقِهِ.

قال بعض العقلاء: "الإفراطُ في الزيارة مُمِلٌّ، والتفريطُ فيها مُخِلٌّ".

وقال زهير بن أبي سلمى:

وَفِي طُولِ الْمُعَاشِرَةِ التَّقَالِي

وفي هذا قال أبو تمام:

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ

قال الشاعر:

عَلَيْكَ بِإِقْلَالِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا تَكُونُ إِذَا دَامَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُسَامُ دَائِمًا وَيُسَالُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَا

وهذا مختلف باختلاف الناس فقد قال الشاعر:

إِذَا حَقَّقْتَ مِنْ خِلٍّ وَدَادًا فَزُرُهُ وَلَا تَخَفْ مِنْهُ مَلَالَا
وَكُنْ كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَا تَكُ فِي زِيَارَتِهِ هِلَالَا

وفي صحيح البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «لَمْ أَعْقِلْ أَبُويَّ إِلَّا وَهُمَا

يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمِرْ عَلَيْهِمَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طَرَفِي النَّهَارِ

بَكْرَةً وَعَشِيًّا» ولا منافاة بينه وبين ما سبق من قوله - صلى الله عليه وسلم -: «زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا»

لأن الأخير مخصوص بمن له مودة ثابتة خاصة، فكثرة زيارته لا تنقص من منزلته.

والزيارة مستحبة شرعاً وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ

أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّاتُ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا».

وفي الحديث القدسي: «وَجِبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ».

ثم قال - رحمه الله -:

خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلِّ

(خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ) وفي نسخة: «خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ» ونصل السيف: حده.

(وَأَتْرَكَ غِمْدَهُ) غِمْدُ السيف: وعاءه الذي يُدْخَل فيه.

(واعتبر فضل الفتى دون الحُلل) الحُلل: جمع حُلَّة، ولا تكون إلا ثوبين من جنس واحد.

يقول: فضل الإنسان في شيمته وأخلاقه لا في ثيابه، كما أن فضل السيف وخطره في حده

لا في غمده، فلا تغترّ بالظاهر.

دخل بعضهم على خليفة فازدراه لملا بسه البالية فقال: «يا أمير المؤمنين إن العباءة لا

تُكَلِّمُكَ وإنما يُكَلِّمُكَ من فيها، وكمال الرجل في أدبه لا في ثيابه» ثم أنشد:

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَثْوَابِي مُلَفَّقَةً لَيْسَتْ بِخَزٍّ وَلَا مِنْ نَسْجِ كَتَّانٍ
فَإِنَّ فِي الْمَجْدِ هِمَاتِي وَفِي لُغَتِي فَصَاحَةٌ وَلِسَانِي غَيْرُ لَحَّانٍ

ذكروا أن عبد الملك بن مروان كان يُحِبُّ لو رأى كُثِيرَ عَزَّةَ الذي سارت أخباره وأشعاره،

ف قيل له يوماً: هذا كُثِيرُ الباب فاستبشر عبد الملك وقال لغلامه: أدخِله، فدخل كُثِيرُ وكان

دُمِيماً فسلم بالخلافة، فازدرتة عين الخليفة وقال: «تسمع بالمُعَيْدِيَّ خيرٌ من أن تراه» فقال له

كُثِيرُ: «مَهْلًا يا أمير المؤمنين فإنما الرَّجُلُ بأصغريه قلبه ولسانه، فإن نطق نطق ببيان، وإن قاتل

قاتل بجنان، وأنا الذي أقول يا أمير المؤمنين:

وَجَرَّبْتُ الْأُمُورَ وَجَرَّبْتَنِي فَقَدْ أَبَدَتْ عَرِيكَتِي الْأُمُورُ
وَمَا يَخْفَى الرَّجَالُ عَلَيَّ إِنِّي بِهِمْ لِأَخَوِ مُشَاقَبَةٍ خَبِيرُ
تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَضُورُ
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلِفُ ظَنَّاكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ
وَمَا عِظَمُ الرَّجَالِ لَهُمْ بَزِينِ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ
بُغَاثِ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا جُسُومًا وَلَمْ تَطُلِ الْبُزَاةُ وَلَا الصُّقُورُ

وَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ فَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
فِيَزْكَبُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي وَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرُ

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

لَا يَضُرُّ الْفَضْلَ إِقْلَالُ كَمَا لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفْلِ

الطَّفَلُ: آخر النهار قبل الغروب.

يقول: إن الفقر وقلة المال لا يضر الرَّجُلَ الفاضل، ولا يَنْقُصُ من قدره، كما أن حلول

الطَّفَلِ حين يُدْنِي الشَّمْسَ إلى الغروب لا يضر الشمسَ لأنها تَغْرُبُ لُشْرُقَ مرةً أخرى وتملاً
الكونَ ضياءً.

قال الناظم - رحمه الله - :

حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ فَاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلٌ
 فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَبْقَى آسِنًا وَسُرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلُ
 أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي عَبَثًا إِنَّ طِيبَ الْوَرْدِ مُؤَذِّ بِالْجُعَلُ
 عَدَّ عَنْ أَشْهُمٍ لَفْظِي وَاسْتَتِرَ لَا يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثَعْلُ
 لَا يَغُرَّنَّكَ لَيْنٌ مِنْ فَتَى إِنَّ لِلْحَيَّاتِ لَيْنًا يُعْتَزَلُ
 أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِعٌ وَمَتَى سُخْنٌ آذَى وَقَتَلُ
 أَنَا كَالْخَيْزُورِ صَعْبٌ كَسْرُهُ وَهُوَ لَدُنْ كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلُ
 غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَلُ
 وَاجِبٌ عِنْدَ الْوَرَى إِكْرَامُهُ وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلُ
 كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ غُمْرٌ وَأَنَا مِنْهُمْ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمَلُ



قَالَ الشَّارِحُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - :

قال ابن الوردي - رحمه الله - :

حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ فَاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلٌ

(الْأَوْطَانُ) جمع وطن وهو مقر الإنسان (عَجْزٌ) ضَعْفٌ (فاغترِب) من الغربة وهي البُعد

عن الأوطان.

يقول: تعلقك بالوطن ضعفٌ ظاهر، فتغرب واضرب في الأرض.

وقد قال أبو الفتح البُستي في عنوان الحِكم:

إِذَا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنٌ فَلَهُ وَرَاءَهُ فِي بَسِيطِ الْأَرْضِ أَوْطَانُ

ويُنسب للشافعي:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرَّجُ هَمٌّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَاجِدِ

وقال الطغرائي في لامية العجم:

إِنَّ الْعُلَا حَدَّثَنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ فِيمَا تُحَدِّثُ أَنَّ الْعِزَّ فِي النُّقْلِ

ومحل ما ذكره من الدعوة إلى السفر ومفارقة الوطن إذا كان لا يقيم مصالحه في بلده،

ولا يُحصِّل فيه شيئاً من الفضائل، وفي بقائه موتٌ لقلبه وشرٌّ، فهذا يقال له: (حُبُّكَ الْأَوْطَانَ

عَجْزٌ ظَاهِرٌ) وقد قال الإلييري في تائيته:

وَلَا تَلَبَّثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلَّا إِنْ كُنَيْتَا
وَعَرَّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ وَشَرِّقْ إِنْ بِرَيْقِكَ قَدْ شَرِقْتَا

أما إذا تيسرت للإنسان مصالحه الدينية والدنيوية في بلده فلا حاجة إلى أن يترك وطنه

وينتقل ويستوطن بلداً آخر إلا أن يكون سفرًا مؤقتًا لتحقيق مصلحة.

وحُبُّ الوطن غريزة في الإنسان كما قال ابن الرومي:

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارِبُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَاكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرَتْهُمْ عُهُودَ الصَّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَ

والنبي - صلى الله عليه وسلم - لما اشتاق إلى مكة أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ

الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي إلى مكة. وقال - صلى الله عليه وسلم -: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ

من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى

أهله».

ثم قال - رحمه الله -:

فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَبْقَى آسِنًا وَسُرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلُ

الآسن والآجن هو الماء المتغير في طعمه أو رائحته أو لونه قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ

مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] قال في موطأة الفصيح:

وَأَجَنَ الْمَاءُ وَمَاءٌ آجِنٌ وَأَسَنَ الْمَاءُ وَمَاءٌ آسِنٌ

مَعْنَاهُمَا تَغَيَّرَ فِي الطَّعْمِ وَاللَّوْنِ وَالرَّيْحِ فَقُلْ بِعِلْمِ

(وَسُرَى الْبَدْرِ) أَي سِرُّهُ لَيْلًا (بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلُ).

يقول: إِنَّ الْمَاءَ الصَّافِيَ بِسَبَبِ طَوْلِ مَكْنِهِ وَتَرْكِهِ الْحَرَكَةَ تَنْتَنُ رِيحُهُ، وَكَذَلِكَ الْهَالِلُ لَا

يَصِيرُ بَدْرًا وَلَا يَكْتَمِلُ نوره إِلَّا بِحَرَكَتِهِ وَقَدْ قَالُوا: «الْحَرَكَةُ بَرَكَةٌ، وَالتَّوَانِي هَلَكَةٌ» وَمَا فِي هَذَا

الْبَيْتِ تَعْلِيلٌ لِمَا فِي الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ مِنْ طَلَبِ السَّفَرِ وَالتَّغَرُّبِ.

ثم قال - رحمه الله -:

أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي عَبَثًا إِنَّ طِيبَ الْوَرْدِ مُؤَذِّ بِالْجُعَلِ

(الْجُعَلُ) دُوبَّةٌ سَوْدَاءُ مِنْ جَنْسِ الْحَشَرَاتِ لَهَا رَائِحَةٌ مَتْنَنَةٌ تَكُونُ فِي الْمَوَاضِعِ النَّدِيَّةِ، لَا

تَأْلَفُ إِلَّا الْخَبَائِثَ، وَالْجَمْعُ جِعْلَانُ.

يقول: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ لَكَ مِنَ الْوَصَايَا وَالْحِكَمِ مُسْتَقَى مِنْ مِشْكَاةِ الشَّرِيعَةِ وَالتَّجَارِبِ

الصَّحِيحَةِ وَالْعُقُولِ الرَّجِيحَةِ، وَلَا يَعْيِيهِ إِلَّا مَنْ كَانَ الْعَيْبُ فِيهِ، كَمَا أَنَّ الْجُعَلَ يَتَأَذَى بِالْوَرْدِ

وَيَعْيِيهِ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

قَدْ تُنَكِّرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنَكِّرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

وقال المتنبي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

وقال:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتْهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الْآذَانُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْعُلُومِ

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

عَدَّ عَنْ أَصْهُمَ لَفْظِي وَاسْتَتَرَ لَا يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلٍ
(عَدَّ) أَمَرَ بالمجاوزة.

(لَا يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلٍ) ثُعَلٌ: بطنٌ من قبيلة طيء مشهورون بجودة الرمي، قال

الطغرائي في لامية العجم:

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِضْمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاءُ مِنْ بَنِي ثُعَلٍ

يقول: تجنب عداوتي فإن سهامَ لفظي سهامٌ صائبة لا تُخطئ رميتها كما لا يُخطئ الرّجل

من بني ثعل رميتها إذا رماها بسهمه.

ثم قال - رحمه الله -:

لَا يَغُرَّنَّكَ لَيْنٌ مِنْ فَتًى إِنَّ لِلْحَيَّاتِ لَيْنًا يُغْتَزَلُ
(لَا يَغُرَّنَّكَ) لَا يَخْدَعَنَّكَ.

يقول: لا تغترّ بخصمك فتستضعفه، فقد يكون هذا اللين كَلِينٍ ملمس الحية، وفي جوفها

السم القاتل.

ثم قال - رحمه الله -:

أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِغٌ وَمَتَى سُخِّنَ آذَى وَقَتْلٌ

يقول: أنا مثل الماء في السهولة والليونة لمن أحسن إليّ، أما من أساء إليّ فأنا معه كالماء إذا سُخِّنَ وغلا على النار يَصُرُّ من تعرَّضَ له وربما قتله.

وفي هذا المعنى قول عنبرة في معلقته:

**أَتْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَمَحٌ مُخَالَقَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمِ
فَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِاسِلٌ مُرٌّ مَذَاقُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ**

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

أَنَا كَالْخَيْزُورِ صَغْبٌ كَسْرُهُ وَهُوَ لَدُنْ كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلٌ

الخيزور: الخيزران وهو نوع من الشجر تُستعمل أغصانه وعروقه في صنْع الرِّمَاح لِلِيْنِه وصعوبة كسره.

(وَهُوَ لَدُنْ) وفي نسخة: (وَهُوَ لَيْنٌ) والمعنى واحد.

(كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلٌ) أي انصرف وفي الحديث: «كان - صلى الله عليه وسلم - ينفتل من

صلاة الغداة حين يَعْرِفُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ» أي ينصرف منها.

يقول: أنا مثل الخيزران لَيْنٌ يُطَاوَعُك إذا أردت أن تعطفه، لكنه لا يُكسر، وهكذا ينبغي

أن يكون المؤمن، ينبغي أن يكون سهلاً لِينًا وفي الحديث: «المؤمنون هينون لينون كالجمل

الأنف الذي إن قِيدَ انقاد، وإن سِيقَ انساق، وإن أنخِته على صخرة استناخ» والحديث في

السلسلة الصحيحة، وهو مع ذلك صُلْبٌ قَوِيٌّ على من أراد به الشر كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

بَيْنَهُمْ [الفتح: ٢٩].

ثم قال - رحمه الله -:

غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مِّنْ يَكُنْ فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَلُ
وَاجِبٌ عِنْدَ الْوَرَى إِكْرَامُهُ وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلُّ

ابن الوردي - رحمه الله - يستحق أن يُجَلَّ ويُكْرَمَ لكنه في زمنٍ لا يُقَدَّرُ النَّاسُ فيه إلا المال، فصاحب المال هو الذي يجب إكرامه وتقديمه ولو كان جاهلاً، أما قليل المال فمحتقرٌ قليل الجاه ولو كان عالماً فاضلاً، ففضله مَقْدَرٌ لا يظهر منع من ظهوره الفقر، وهذا الانقلاب في الموازين من أشراط الساعة كما قال - صلى الله عليه وسلم -: «ستأتي على النَّاسِ سنون خداعة، يُصدق فيها الكاذب، ويُكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويؤخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: السفية يتكلم في أمر العامة» وفي حديث حذيفة - رضي الله عنه - في الصحيحين قال - صلى الله عليه وسلم -:

«يقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان».

وقال رَجُلٌ - وكان حسن الحال ثم اختلَّ أمره -:

وَكَانَ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ: مَرْحَبًا فَلَمَّا رَأَوْنِي مُعْدِمًا مَاتَ مَرْحَبُ

وقديماً قيل: «إذا أيسرت فكل رحلٍ رحلك، وإذا أعسرت أنكرت حتى أهلك».

وما أملح قول بعضهم:

مَا بَالُ أُمَّ حُبَيْشٍ لَا تُكَلِّمُنَا إِذَا افْتَقَرْنَا، وَقَدْ نُشْرِي فَتَنَفَّقُ

يقول السقاف في العود الهندي: «ما من خصلة تكون للغني مدحاً إلا كانت للفقير ذمّاً،

فإن كان حليماً قِيلَ: بليد، أو شجاعاً قِيلَ: أهوج، أو لَسِناً قِيلَ: مهذار».

وقد قال العباس بن الأحنف:

يَمْشِي الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدُّهُ وَالنَّاسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا
وَتَرَاهُ مَبْغُوضًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ وَيَرَى الْعَدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا
حَتَّى الْكِلابُ إِذَا رَأَتْ ذَا ثَرْوَةٍ خَضَعَتْ لَدَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا عَابِرًا نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أَنْيَابَهَا

ثم قال ابن الوردي - رحمه الله -:

كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ غُمْرٌ وَأَنَا مِنْهُمْ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمْلِ

الغمر - بضم الغين - : هو من لَمْ يُجَرِّبِ الأمور.

حَكَمَ - رحمه الله - على جميع أهل عصره بقلّة العلم والتجربة، وقد كان في عصره أئمةٌ وعلماء وأهل فضل، لكنّ الشَّرَّ إِذَا غَلَبَ قد يُنْسِي الخيرَ القليل، وَمِنْ حُسْنِ تَوَاضُعِهِ أَنَّهُ لَمْ يُبَرِّئْ نَفْسَهُ بَلْ قَالَ: (وَأَنَا مِنْهُمْ) مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْمَعُ بَيْنَ ذِمِّ أَهْلِ عَصْرِهِ وَرَفْعِ شَأْنِ نَفْسِهِ فَيُسِيءُ مَرَّتَيْنِ، لَكِنَّهُ قَالَ: (وَأَنَا مِنْهُمْ) فتواضع رحمه الله.

ثم قال: (فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمْلِ) أي اكَتَفِ بهذا ولا تَبْحَثْ عَنْ تَفَاصِيلِ هَذَا الْكَلَامِ،

وَاجْتَهِدْ فِي إِصْلَاحِ عَيُوبِكَ، وَلَا تُضِعْ وَقْتُكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ.

وهنا تمت المنظومة، وبعضهم يزيد فيها:

وَصَلَاةُ اللَّهِ رَبِّي كُلَّمَا طَلَعَ الشَّمْسُ نَهَارًا أَوْ أَفْلَ
لِلَّذِي حَازَ الْعُلَا مِنْ هَاشِمٍ أَحْمَدَ الْمُخْتَارِ مَنْ سَادَ الْأَوَّلُ
وَعَلَى آلٍ وَصَحْبٍ سَادَةٍ لَيْسَ فِيهِمْ عَاجِزٌ إِلَّا بَطَلُ

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

نسأل الله أن يجزي ابن الوردي عنا خير الجزاء، وأن يُعلي في الجنة مقامه، وأن ينفعنا بهذا

الذي تعلمناه، وأن يُعيننا على العمل به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

